د: محمد بن قاسم ناصر بوحجام

سر الشعر والهوية القومية

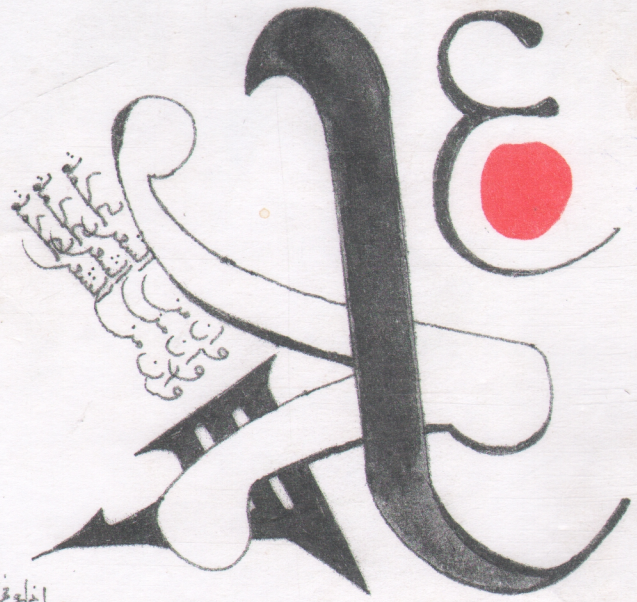

من الشعر حكمة

106

الجامعية

ملك جمعية
أبي إسحاق إبراهيم اطفيش
لخدمة التراث
106

د. محمد بن قاسم ناصر بوحجام

الشعر والهوية القومية

منشورات التبيين / الجاحظية

سلسلة الدراسات

الجزائر 1999

ردمك: 2 - 61 - 913 - 9961

رقم الإيداع القانوني: 99 - 369

وقد استجابت هذه النّزعات لنزغات الغرب لإحياء الحضارات القديمة لضرب الوحدة العربية والوحدة الإسلامية: « وأعانت الدّول المحتلّة - كلّ في منطقة نفوذها على تدعيم قداسة هذه الأوطان الجديدة في نفوس النّاس بأسلوب علمي منظّم، وذلك بمساعدتها على إحياء التّاريخ القديم لكلّ قطر من هذه الأقطار.

ونشط الحفر للبحث عن آثار الحضارات القديمة السابقة على الإسلام في كلّ من العراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ومصر لتوهين عرى الجامعة العربية، ولتشتيت القلوب، التي ألّف بينها الإسلام، وجمعها على لغة واحدة فاستيقظت العصبيّات الجاهلية وراح كلّ بلد يفاخر البلاد الأخرى لمجده العريق، وشغلت الصّحف بالكلام عن الكشوف الأثرية الجديدة، وما تدلّ عليه من حضارات البابليين والآشوريين والكلدانيين والحيثيّين والفنيقين والفراعنة... وللأروبيين في ذلك أسلوب خبيث ماكر... » (1)

ودخل الكلّ في صراع وعراك ضدّ الكل، الخاسر فيه كان الهويّة القويّة والوحدة العربيّة والإسلاميّة. إنّ ما يستغرب منه أن تثار قضيّة الهويّة، وأن يختلف فيها أبناء الملّة الواحدة والثّقافة الواحدة في هذا الوقت الذي يتكالب فيه الأعداء ويسعون إلى إزالة هذه الأمة العربيّة من الوجود. ويدعو فيه المغرضون والسّذّج منّا إلى عالمية الثقافة والدّخول في كنف النّظام العالمي الجديد، تمحى فيه الفوارق الثّقافية، وتكون فيه السّيادة والسّيطرة للقوىّ جاها وسلطانا وطغيانا وديكتاتورية...

أمام هذه التّطورات كان لا بد من البحث عن الأسباب الفاعلة وإيجاد السّبل القويمة لمعالجة مشكلة الهويّة والقوميّة، ومعرفة دور الشعّر في تحليلها، والعمل على استدراك مافات، يقول الدّكتور عبد الله ركيبي: « إنّ ما نعيشه الآن يفرض علينا أن نبحث عن جذور الفكر الأصيل في تراثنا العربي ونبحث عن الأصالة الرّاسخة فيه حتى نعرف أنفسنا ونؤكّد الصّلة الّتي تعمّق من فكرة الوحدة التي

يعبر عنها شعراؤنا في المغرب أو في المشرق وإنعكست في قصائدهم وأشعارهم» (2).

حاولنا في هذه المحاضرة أن نشارك في هذا الموضوع وتحليل القضيّة، بالاعتماد على دور الشّعر في تثبيت الهويّة وذلك بإتخاد تجربة الشّعر الجزائري نموذجا لذلك.

إختياري لهذا الشّعر نموذجا أملته عوامل كثيرة، منها جهل كبير من إخواننا المشارقة- بخاصّة- بهذا الشّعر ،ماقيل من قبل استقلال الجزائر على الخصوص. بل صدرت حوله أحكام صبغته بصبغة أبعدت عنه سمات العروبة والأصالة، بسبب تمكّن الاستعمار الفرنسي في الجزائر مدّة قرن ونصف تقريبا، وضَربة اللّغة العربيّة في العمق. وقد تخيّل لكثير من إخواننا في المشرق العربي أنّ ما أنتجته القريحة الجزائرية أدبا هوما كتب باللّغة الفرنسية فقط، وهو الذي يمثّل الأدب الجزائري الحقيقي، ولهذا تكرّم بعض إخواننا المشارقة بترجمة بعض النّماذج المكتوبة باللّغة الفرنسية إلى اللّغة العربية حرصا منهم على التعريف بالمأساة الجزائرية. هذا العمل وإن كان منطلقه نيّة حسنة إلاّ أنهّ يمسّ الجزائر في العمق إذ يتّهمها في أصالتها، بفقدها أحد مقوّمات شخصيّتها وهو اللّغة العربيّة وما ينجرّ عن ذلك من إنعكاسات سلبيّة على فكرها. هذا الظن أدى بالدكتور طه حسين الى أن يصرّح في إحدى جلسات مجمع اللّغة العربية في أواخر الخمسينيّات: « إنّ الاستعمار الفرنسي نال من الكتّاب الجزائريين الى درجة أنّهم فقدوا قوميّتهم العربيّة» (3)

يقول د. صالح الخرفي: « العزلة التي فرضها الاستعمارعلى الجزائر والقطيعة التي استهدفت بها روابط العروبة والإسلام، والحرمان الذي استنزف به كلّ عرق نابض والعقيدة والقوميّة، هذه العزلة هي هيّأت. التي في الشّرق مناخا خصبا للظنون الخاطئة و تلك القطيعة هي التي خلّفت فراغا ذهنيّا متهيئا لتقبّل كلّ شيئ ولو كان على حساب أصالة القطر وعروبته وإسلامه، فنتج عن ذلك سوء فهم

للحقائق وسوء ظنّ بالمظاهر العابرة التي تخفيها، وجرّ ذلك إلى سطحية في التعارف وحساسيّة في الاحتكاك، وضيق صدر في تفسير الأمور واحتكام الى النّظرة المرتجلة، تنزع في أحكامها إلى المعرفة الحديثة العهد، القريبة المأخذ، عارية من الحقيقة الراسخة الجذور، المتّئدة النفّس، نظرة أشبه النّبتةِ الطفّيلية التي لا تمتد عروقها أعمق من قشرة الأرض...»(4)

كما أن ما تعيشه الجزائر اليوم من رواسب فكرية، وما تعج فيها من تيّارات أثارها أو تبنّاها من فقد الوطنية وابتعدوا عن الأصالة، فحملو الرّاية ضدّ ما هو أصيل، رسّخ في أذهان إخواننا المشارقة بخاصّة: أنّ صورة الجزائر هي كما يقدّمها هؤلاء، وأنّ الجزائريين الحقيقين هم هؤلاء بأفكارهم وميولهم ومعتقداتهم.

لكلّ ذلك اتّخذت الشّعر الجزائري نموذجا لحديثي عن دور الشعر في الهويّة القوميّة. ما ركزّت عليه يعدّ ماضيًا وخبرة يستفاد منها في خوض معركة الهويّة والقوميّة في الوقت الرّاهن.

من العوامل التي دعتني إلى تناول الشّعر الجزائري نموذجا للشّعر القومي أنّي وجدت فيه نفحات ولفتات وومضات، تعبّر عن العناصر المشتركة المكونّة للهويّة القوميّة كالدّين واللّغة والتاريخ، والآمال، والآلام، وفيه كان الحديث كثيرا عن العروبة وقضايا عربيّة وإسلامية... وبخاصّة وأنّ الجزائر مرت بتجربة قاسية فريدة من نوعها في العالم والإسلامي من حيث الهجوم الذي تعرضت له في هويّتها وقوميّتها، ومن حيث المقاومة التي أبدتها في صد هذه المؤمرات والدّسائس.

وقد كان للشّعر دور كبير في المعارك والمصادمات من أجل تثبيت الهويّة القوميّة، هذه التّجربة الفنيّة تصلح أن تكون مثالا يحتذى في هذا المجال في الوقت الرّاهن. فكيف كانت نظرة الشّعراء للشعر مفهوما ووظيفة.

مفهوم الشعر ودوره عند الشعراء الجزائريين

قام الشّعر كبير في الدّعوة إلى الهويّة القوميّة العربيّة الإسلاميّة، وتوضيح حقيقتها وتحديد عناصرها ورعايتها والمحافظة عليها، وحمايتها... وتميزها عن غيرها من الهويّات الأخرى، التي تحاول التيّارات المتصارعة والدّعوات المغرضة طمسها.

سجّل التّاريخ هذا الدورّ الكبير، مثلما كان الحال في معركة الدّعوة الإسلاميّة، والحركات الشّعوبية عبر التّاريخ، ومثلما حدث في تاريخ العرب الحديث، الذي كانت تتوزّعه الجامعة الدينيّة والجامعة الوطنيّة (5)

لقد حاول الشّعر - بذلك المحافظة على القوميّة، وهو عمل أو وظيفة منوطة به، إذا عددنا الشّاعر رائداً يتحمّل مسؤوليّة كبيرة في حياة الأمّة في جوانبها المختلفة عليه أن يقاوم الاستبداد والتّخلفّ والانهزامية وضعف الشّخصية... عليه أن يقوم بكل واجباته نحو قومه ووطنه، إن تقاعس عن هذه الوظيفة، عدّ شعره إن سقط منه هذا المجال «خيانة كبرى وخنجرا مسمّما في قلب المجتمع»

كما يقول الشاعر الجزائري رمضان حمود (6)

«بل إن دور الشّاعر الريادي لا يقف في حدود النّظر إلى الواقع، والتّفاعل مع الحاضر فحسب، إنّما دوره أن ينظر إلى مستقبل شعبه، وأن يهيّئ التّربة الصّالحة للخلف»(7) وقديما قالو إنّ الشعراء هم أنبياء، إذ هم ساسة الأفكار وقادة الشّعوب. وقد قال شاعر الثّورة الجزائرية مفدي زكرياء -1908-1977):

رسالة الشّعر في الدنيا مقدّسة

لولا النّبوءة كان الشّعر قرآنا (8)

هذا هو الشّعر القومي الذي يعمل على الكشف عن حقيقة مشاعر الأمة،

ويترجم آمالها. ويعرض آلامها، ويواسي جراحها، ويرسم لأبنائها الطّريق الأصلح في الحياة.

في أداء هه الوظيفة تجمع القوميّة أطرافها، لتوحّد في الأمة المنزع والمصير والميول يقول الشاعر أبو اليقظان (1880-1973): «اعلم أن آداب كلّ أمّة مرآتها، ومرآة الأدب الشّعر، فالشّعر هو مظهر تظهر فيه مشاعر الأمّة، وتتجلّى فيه أحوالها، وتتراءى للرّائي نفسيتها، ويعرف به درجة مزاجها العقلي» (9)

أما محمّد السّعيد الزّاهري (1899-1956) فيعطى مدلولا أوسع للشّعر ووظيفة أكبر وأسمى، بإبرازه المعنى العميق للشّعر المنبثق من الشعور. فهو يرى أن الشّعر ونظمه أن لا ينحصر في فئة معيّنة. بل ينبغي أن يتعاطى قرضه كلّ أفراد الشّعب الجزائري، ماداموا يعيشون مآسي، وما داموا في الوقت نفسه يملكون مشاعر وعواطف: « إنّ الشّعر هوالشعور وأبناء الجزائر يشعرون جميعا بهذه الآلام، فما بالهم لا يكونون شعراء أجمعين؟ أشعر بمجد الجزائر القديم، وأشعر بعد ذلك بماصارت إليه هذه الأمّة من البؤس الأليم، فينفطر قلبي انفطارا ويغلي صدري هموما وأحزانا » (10)

هذه اللّفتة تعدّ لبنة مهمة أو نظرة واعية هادفة في طريق بناء صرح القوميّة، لأنها ترمي إلى تحسيس كلّ مواطن وكلّ فرد بأنّه مسؤول عن كلّ ما يتعلّق بوطنه وقومه، مهما يكن مستوى هذا الشّخص أو وظيفته أو مركزة الاجتماعي...

وتدعو هذه النّظرة إلى تجنيد القوى لتشييد الوطن، وتهدف إلى توحيد العواطف وتكاثف الجهود، للوقوف أمام كلّ ما يعوق تطوّر البلاد ومسيرته. هذه الرّؤية ترغب أن تمتزج المشاعر ليقبل الجميع متحدين على النّهوض بالجزائر... وبذلك يكون الشعر أداة قوميّة للدفاع والهجوم في آن واحد، ثم بث الوعي والحماسة في القوم، وفي هذا يقول الشاعر رمضان حمود (1906-1929):

وشعري كالحسام يصون عرضا
بلا حرب عوان أو نضال
يصادم من يعيث بمجد قومي
ويطعن ذا الضلال بلا نزال
أسيره كما حكمت ظروفه
ولكن كله نحو المعالي (11)

وقال أيضا:

أرى همتي شرا علي ولعنة
إذا هي لم ترفع من المجد منزلا
فتلك خصال صيرتني مطالبا
بحق بلاد بات حقّا معطّلا
أشدّ عليها بالنّواجد جازما
بأنّ حياتي بعدهن من البلى
فلا أنشني واللّه - والقبر فاغر-
إذا دام شعبي في الهوان مكبّلا(12)

أما مفدي زكرياء الذي يعد رسالة الشّعر في الدّنيا مقدسّة، فيستعرض الأدوار التي قام ويقوم بها الشعر، فقال من جملة ما قال:

وكم رفعنا بها أعلام نهضتنا
فخلّد الشعر في الدّنيا مزايانا
...وجية الشّعر في دنيا عروبتنا
أقوى من القدر الجبّار سلطانا
والشّعر طهر في الدّنيا سرائرنا
والشّعر يسر للخيرات أشقانا(13)

بيّن الشّاعر الفضل الكبير الذي يقوم به الشّعر إنّه دور وطني قومي، يهتّم بتسجيل المآثر والمكرمات وتخليد المزايا، ويعمل على إيجاد أسباب الوحدة والتّضامن والتآزر. وبه تمكّن العرب أن يجتمعوا في دمشق (الفيحاء) في مهرجان الشعر (يوم 23 سبتمبر 1961) الذي ألقى فيه مفدي زكرياء قصيدته باسم الجزائر الجريحة معبرًا عن تمسّك الجزائريين بعروبتهم، وبالوشائج التي تربطهم بإخوانهم العرب في كل مكانٍ هذا هو المفهوم القومي أو الدّلالة القومية للشّعر.

لهذه الوظيفة الاجتماعية والرّسالة السّامية للشّعر قال محمد العيد آل خليفة (1904-1979) بعد أن ذكّر بأثر الشّعر في الشّعب:

لقد بذر الشّعر فيه الفدى
وحسبك بالشّعر من باذر
وقفت على الشّعب جهدي به
وكرست عمري إلى الآخر(14)
أيّها الشّعب أنت موضع شعري
وشعوري لا زينب والرباب(15)

والشّعر أيضا يمكّن من إثارة الحماسة في النفّوس، وبعث الشّعور الوطني في القلوب للنّهوض لمقاومة كلّ ما يمسّ الكرامة، وينال من الذات، ويصيب الإنية، يقول محمود بن دويدة:

فكم كهرب الشّعر مغلوبا على وطن فجّرد السّيف يتلو آية الغلب (16)

هكذا نلمس الرّوح القوميّة في هذه النّظرات، التي ربطت بين وظيفة الشّعر الوطنيّة في جوانبها الاجتماعية والسياسية والتربوية. أو بمعنى إنّ الشّعر لم يوجد إلا ليخدم الدّين والوطن وقضايا المجتمع.

إذا ما حاولنا أن نستخرج الدلالات القوميّة في الأثار السابقة والتّعريفات الأنفة فإننا نقول: إنّ الشّعر هو مرآة الأدب. وهو السّجل. والديوان. إنّه... المصير والكرامة. هو أداة كفاح في سبيل تأصيل قيم الشّعب، وأداة نضال سياسي واجتماعي لبعث الاحساس الوطني والقومي هو وسيلة من وسائل الرّقيّ والنهّوض. وبها توصف رسالة الشّاعر بأنها إصلاحية توجيهيّة تعليميّة تحميسيّة (17).

مفهوم القوميّة وأسباب بعثها

يقول الدّارسون: في الأدب القومي تتجلى منازع الأمّة ومطامحها وآمالها وآلامها. وفيه تبرز وتتّضح ملامح الشّعر الحماسي القديم والتّراث الأدبي الأصيل.

حين نفحص الشّعر القومي لا نجده سوى آراء وأفكار ونظرات، تترجم فلسفة المجتمع في تفكيره ومسيرته وتنظيمه لشؤونه في الحياة، يتحرّك هذا الشّعر وفق خطّة مرسومة وتوّجه محدّد، ليصل إلى هدف معيّن محدد أيضا. إنّه « تعبير عن وجدان الأمّة من خلال نفسيّة الشّاعر، فإذا ما حاد عن هذه الحقيقة، ونأى بشعره عن محور وجدان قومه ليدور في فلك فرد أو زمرة من النّاس، انقلب بوقا لأولي الأمر، يؤثر العيش في كنفهم كالهر الأليف، الذي يترقب فتات الموائد » (18)

من هنا نقول إنّ الشّعر القومي عمل فنّي ينشئه شاعر أصيل في مشاعره وأفكاره، يعبّر عن عواطف أمته، ويكشف عن آمالها، ويُعنَى فيه بقضايا مجتمعه، لذا يرى الدكتور أمجد الطرابلسي في كتابه « الأدب العربي بين الأدب القومي والأدب الإنساني » : أنّ « الشّروط التي يجب توافرها في الأدب ليكون قوميًا هي نزاهة الإحساس وصدق التّعبير عنه، والقدرة على النقّل والإيحاء، والبقاء في محور الأمّة فكريًا وعاطفيًا ولغويًا » (19)

هذه شروط جوهرية في وصف العمل بالقوميّة، وهي ليست في متناول كل الناس وكلّ الفنانين، لأنّ الظروف التي يمرّ بها الإنسان: الضّغط النفّسي والإجتماعي والسياسي والثّقافي... قد تسبب ضعفا في نفسه، وتؤدي به إلى الإنحراف عن جادة الصّواب في بعض مواقفه وآرائه وعلاقاته بمن يحيطون به، فيفقد البقاء في محور أمته فكريا و عاطفيًا ولغويًا.

هذه المقابيس أو هذه الشّروط كفيلة بتمييز الأدب القومي من غيره. مجمل القول إن « القوميّة بمفهومها البسيط تعني شعورا مشتركا بين جماعة من البشر بأن ثمة ما يجمعهم ويؤلف بينهم ليكونوا أمّة واحدة متميّزة عن سائر الأمم » (20).

إلاّ أنّ المشكلة التي برزت في العصر الحديث، وفي تاريخ المسلمين والعرب، هي عدم الاتّفاق على هذه الشّروط الجامعة لهم قوميّة واحدة، بسبب التّقلبّات السّياسية، التي حدثت في حياة المسلمين والعرب، وبسبب التّطورات الثقّافية التي وجدت في محيطهم. هذه المستجّدات، التي تسبّب فيها الأعداء، وغذاها المغرضون، ورعاها المتربصون والمرجفون. أنتجت ثمارا خبيثة زادت في الشّقة بين الأشقاء، وزعزعت الثقة بين الأخلاء.

يقول د. عمر الدقاق: « اتّسم المفهوم القومي في الشّعر العربي الحديث بالغموض والاضطراب، شأن كلّ مفهوم اجتماعي في طور نشأته، ولم ينبجس صافيا أوّل الأمر، فقد صحبته منذ ولادته في نفوس العرب منازع أخرى ذات جذور تاريخيّة ونفسيّة عميقة، أخذت تضفي عليه ألوانها حتى بات من العسير التّميز بينها وبينه في بعض الأحيان » (21)

نتيجة لهذا الغموض في تحديد الإطار الذي يجمع العرب في قوميّة واحدة والمسلمين في قوميّة موحّدة، نشأ الصّراع، وازداد العراك، وتفشّى الانقسام

وكثرت التّسميات، وتزيّنت القومية بأزياء مختلفة، وتلوّنت المفاهيم بألوان شتى. فإذا العروبة تعني الإسلام عند جمهرة من الشّعراء، ومن هذا المفهوم انبثق مصطلح « الجامعة الإسلامية » التي جرى الحديث عنها حين كانت العاطفة الدينية هي المسيطرةعلى القلوب « وحين كانت الظّروف التي تسود العصر توحي بأنّ الخصومة بين الشّرق والغرب هي خصومة بين الإسلام والمسيحية، أو هي استمرار للحروب الصّليبية كما تصوّر بعض زعماء الوطنيّة وكتابها... » (22) ومايزال لهذا المفهوم وهذا التصوّر حضور إلى يومنا الحاضر بخاصة عند من يرى في إثارة بعض النّزعات العرقية مساسا بالإسلام وما يتصّل به.

وعند بعض النّاس كان المفهوم القومي موشّى بالنّزعة الشّرقية فمحاولة لإعانة المستضعفين، للوقوف أمام أطماع الغرب « إلاّ أنّ المفهوم الشّرقي كان مترجرجا في أذهان الشّعراء يتّسع حينا ليشمل الشّرق بجموع أممه، وينحسر حينا ليعني المسلمين أو يضيق حينا آخر ليقتصر على العرب وحدهم » (23).

وكانت القوميّة تعني أحيانا النّزعة الوطنية الخالصة، التي تهتّم بالإقليم، وما يستلزم ذلك من الاعتناء بالتّاريخ الوطني القديم منه والحديث والتّفكير في حدود جلب المصلحة للوطن والإهتمام بمصيره فقط، مفصولا عن بقيّة الأقطار، لأسباب سيّاسية واجتماهيّة ونفسيّة.

ومن مظاهر ذلك الافتخار والاعتزاز بالأصول الخاصّة لكلّ شعب أو قطر، أي وجدت نزعات وطنيّة محليّة، حرصت على إبراز كيان خاص بها: فالمصريّون أحفاد الفراعنة واللّبنانيون أحفاد الفينيقيين، والعراقيون أحفاد البابليين، والحجازيون أحفاد العرب الأمجاد، وشعوب المغرب العربي أحفاد الأمازيغيين...

فأصبحنا نقرأ ونعيش بعض التّكتّلات: الرّابطة الإسلامية، الجامعة العربية، الجامعة المصرية القوميّة الشّرقية، النزّعة العروبية، النزعة الأمازيغيّة... (24).

إلاّ أنّ التيّار الغالب في الأخير - على تفكير النّاس، والذي طغى على مشاعر الشّعراء هو تيّار القوميّة العربيّة (25) وقد تجلّى ذلك في إلحاح « الشّعراء على وحدة الأصل العربي وحدة اللّغة العربيّة، وماضي العرب وتاريخهم المشترك وآلامهم وآمالهم، ونزوعهم الشديد نحو وحة أقطارهم وشعوبهم(26)

لسنا في صدد نقد هذه المفاهيم وهذه النّزعات. المهّم أنّ الشعر القومي هو خيرما يكشف عن الوجدان الجماعي، ويصّور اتجاهات الشّعوب العربيّة ومنازعها وما تتميز به حياتهما الإجتماعية والسيّاسية والثّقافية. والشّعراء حين تناولوا القوميّة، تعاملوا مع تلك التي تدعو؛ الى المحافظة على المقوّمات الأصيلة والتي تشعر بوجود كيان متميّز، وتحسّ بالوحدة التي تربط الشّخص بمن لديهم علاقة في الجنس والمرجعيّة والمصالح تلك التي تدفع الفرد كي يطالب بحقوقه وينهض ليذود عن وطنه الكبير.

كما أنّهم حين بحثوا في القوميّة أقروا أنها هي تلك التي تجمع القوم على لغة واحدة، وعلى تاريخ واحد، وآمال وألام واحدة ومصير واحد... فماذا عن الشّعراء الجزائريين وكيف تناول شعرهم القوميّة، وما هي مظاهرها فيه؟

مظاهر القومية في الشعر الجزائري

عاش الشاعر الجزائري وما يزال يعيش أزمة نفسيّة كبيرة، لأنّه وجد في محيط يعاني مأساة الاغتراب اللّغوي ويكافح في استماتة في سبيل تعريب الجماهير، والارتفاع بها إلى مستوى الملتقِي المتذوّق الواعي لرسالة الأدب والفاهم لدورلدور الشّاعر في الحياة وريادته لها...

بهذا دخل في صراع داخلي مع نفسه، وآخر خارجي مع غيره، ليصحح الانحرف، ويرشد الى الصّواب ليلتقّي بعد ذلك أنواعا من الهجوم على أفكاره ومواقفه و يُتّهم في عقله ويوصم بأوصاف جريحه موغلة في القدح والشّماتة.

مع أنّ كلّ ما قام به هو محاولة جادّة وصادقة للدّفاع عن القوميّة، وإثبات الهويّة وقد نجح في هذا نجاحا كبيرا، بخاصّة إبّان الاحتلال الفرنسي للجزائر، رغم أن الوطنيين الأحرار كانوا يخوضون - في مواجهة كل ذلك- معارك متعددة الجبهات ويواجهون وجوها مقنّعةويلتقون بسبل ملتوية، ويحاربون أعداء ظاهرين ومتستّرين... كلّ هذه الواجهات تجنّدت لضرب الشّخصية الوطنيّة، والنيّل من القوميّة العربيّة والإسلامية.

نتج عن ذلك ما زعزع القومية:إذ وجد إسلام مشوّه وثقافة دخيلة مسمومة وشعب تسلط على زمامه المستعمر، وشباب مشوّه الثّقافة واللّسان، مفصول عن تاريخه وحضارته.

وقد كان ماأقضّ مضجع المصلحين بخاصّة هو تشكك في الشخصية الوطنيّة بل جحود وكفران بها، وما تأسفّوا له أن يحمل هذه الفكرة أبناء الجزائر أنفسهم بل مثقّفوها: « وليته التشكّك السّاذج عند رجل الشّارع العام أو فالح الأرض البسيط، يتظافر على تغذيته جهل المواطن ومكر الدّخيل أو ليته الهجس الخفيّ، تسرّه القلوب المريضة ولكنّه الفكرة المدروسة تتجرأ على الصدع بواسطة الجريدة أو الكتاب المطبوع، وترفع عقيرتها في وضح النهار.

فلا غرابة في أن يكون الجهد الذي استنفذه الانحراف الدّاخلي مع الحركة الاصلاحية يزيد أضعافا على ذلك الذي يكلّفه عدوّ دخيل لا يحتاج لأكثر من مناورة ذكيّة (27).

بدافع من هذا الوضع المتردّي المستهدف الهويّة الوطنيّة والقوميّة العربيّة والاسلاميّة، تحرك الشّعر ليقول كلمته، وليقوم بواجبه في معركة الأصالة والهويّة وإثبات الذات. تحرّك ليكون وفيّا لمشاعر الأمة ولعواطف الشّعب، وليؤكد على قوميّته، والشّعر القومي ليس سوى التّعبير عن وجدان الأمّة من خلال نفسيّة

الشّاعر. وقد حرص على مسائل أساسيّة من أجل الوصول إلى غايته: الدّعوة إلى الاستمساك بالدّين واللّغة والوطن استجابة لشعار الحركة الاصلاحية في الجزائر: الاسلام ديننا والعربيّة لغتنا والجزائر وطننا. إنّه الثّالوث الذي يكوّن حقيقة الوطن الجزائري. من هذه المسائل أيضا تناول طبيعة الجزائر من منطلق قومي وكذا العمل على بثّ الوعي التّاريخي في النّفوس، وإحترام التّاريخ وعدّه ذاكرة، يجب أن يتأبّى عن النّسيان، ثمّ التّركيز على مسألة الانتماء العربي والإسلامي.

1- التغني بالوطن

كثر الحديث عن الوطن كثرة لافتة للنظر، واتّخذ التّعبير عن حقيقته والتّعلق به، والحرص على حمايته والذود عنه ووصف أجزائه ومناطقه والإشادة خصال أبنائه...

اتّخذ ذلك كلّه أشكالا متنوّعة، وظهر بألوان متعدّدة : شكل التّصريح باسمه« الجزائر» وبتلك المعاني من دون موارة ومظهر التّعزل به، كما يتعزّل بالمحبوبة، وأسلوب الرّمز.

وقد كان الإفصاح عن تلك المعاني يقترن بتجديد الحنين إلى التّربة والاعتزاز بالأرض الخصبة، ومزج المواقف البطولية بوصف الطّبيعة السّاحرة التي احتضنت تلك المواقف وتلك البطولات. وبذلك اندمجت الذّات بالتّراب اندماجا، لا يمكن أبدا فصلهماعن بعضهما. في هذا المزج والإندماج يَكْمنُ الرّدّ الصّريح على سياسة فرنسا لسلب الأرض من ذويها باعتبار الجزائر قطعة من فرنسا.

قال محمد العيد آل خليفة سنة 1937م.

يا موطنا لي خصبُهُ ونعيمه
وله هواي على المدى وتشيّعي
مصطفاي الباهي الظّليل ومخرفي
الزّاهي ومشتاي الجميل ومربعي

مازال حبّك ناشئا متبرعرعا
في ناشيء بجوانحي متبرعرع
أقسمت لو خيّرتني في مصرع
مااخترت إلاّ في سبيلك مصرع
إسأل أجب وأمدد أطع واصرخ أغث
واصفح أنب واسمع أقل وانصح أع
مضت الدّهور وأنت حيّ سالم
من عهد عقبة والغزاة التّبّع
هاأنت في وسط الزّعازع ثابت
باق على الإسلام لم تتزعزع
بوركت من وطن تسامى فالتقى
بالمنتهى في مستواه الأرفع
يحميه شيب كالملائك طيبة
وشبيبة مثل النّجوم اللّمّع(28)

يبدو في هذه اللّوحة التّمسّك بالوطن مهما يكن الحال. فهو مصطفى الشّاعر ومخرفه ومشتاه ومربعه، هو كلّ شيئ في حياته. ويبرز فيها الخضوع التّام لما يمليه الوطن ويأمر به. هذه المشاعر ردّ واضح على محاولات العدوّ صدّ أبناء الوطن عن منبتهم بوسائل الإغراء والتهديد على السواء.

يظّل الشّاعر غير آبه بما يلاقيه وما يعانيه من الآلام، مهما يكن مصدرها، حين يكون ذلك في سبيل وطنه الحبيب أرضه الزكيّة بل يصبح كلّ ما يقوم به وما يبديه من سلوك ويظهره من ممارسة هو من أجل الجزائر. هذا هو الصّدق والوفاء، وهذا هو الارتباط القومي والولاء الوطنّي اللّذان يكونان في السّرّاء والضّرّاء. وهذا هو الطريق الأسلم لتثبيت الهويّة القوميّة في النّفوس، فليعتبر الذين يكونون مع

وطنهم وله في حالة السّراء وضدّه وعليه وقت الضراء،

قال محمد السعيد الزاهري وهو يضّمن كلّ بيت اسم الجزائر

وفنيت في حبّ الجزائر مثلما
يفنى المحبّ الحقّ في الأحباب
كيف الخلاص من الجزائر بعدما
ملكت عليّ مشاعري وصوابي
فإذا ضحكت فللجزائر أو نحبت
فلم يكن إلاّ لها تنحابي
أو أبت يوما أو ذهبت، ففي
الجزائر مذهبي أبدا لها، ومآبي
مهما تأذّى في الجزائر مسلم
إلاّ توقّر من أذاه منابي
وإذا أصاب بني الجزائر حادث
فهناك عظم بليّتي ومصابي
ويَلذّ من بعد ذلك أن يطو
ل على الجزئر في الحساب حسابي(29)

يحذو شاعر الثّورة الجزائرية مفدي زكرياء حذو زميله محمد العيد ومحمد السّعيد، فيبرز حقيقة الوطن الجزائري، ردّاً على كل إستفزازات الفرنسيين، متحدّيهم في محاولاتهم اليائسة لمحو آثار وجود كيان اسمه (الجزائر). وثورة التحرير الجزائرية مشتعلة، وتفاعلاتها متواصلة، متصاعدة بضربات الثّوار، ومتنامية في تسليط أنواع العذاب والقهر والتّنكيل.

قال سنة 1958:

وقل الجزائر واصغ إن ذكر اسمها
تجد الجبابر ساجدين وركّعا
إنّ الجزائر في الوجود رسالة
الشّعب حرّرها وربك وقّعا
إنّ الجزائر قطعة قدسيّة
في الكون لحنّها الرّصاص ووقّعا
وقصيدة أزليّة، أبياتها
حمراء، كان لها نفم برمطلعا
نظمت قوافيها الجماجم في الوغي
وسقى النّجيع رويها، فتدفّعا
غنى بها حرّ الضّمير، فأيقظت
شعبا إلى التّحرير شمّر مسرعا
سمع الأصمّ رنينها فحنا لها
ورأى بها الأعمى الطريق الأنصعا(30)

نقرأ هذه الأبيات الاصرار على التّمسك بالأرض والوفاء للوطن، ونقرأ فيها التقديس والتّعظيم للمنبت، ونسجّل في هذه المبالغة والتصّوير والتّقدير الصّدق والوفاء والمعاهدة على مقاومة كلّ ما يقف في طريق حبّ الوطن والهيام به، والعمل على نصرته. إنّ ذلك جزء من التّعبير عن الهويّة والقوميّة.

أما أبو القاسم سعد الله في قصيدته: «ثورة الأرض سنة 1955» فيكشف عن مأساة ابن الجزائر، الذي ليس له من أمّه الأرض إلاّ ما ينغّص حياته، وينكّد عليه عيشه، بسبب ما يمارسه عليه المستعمر من ألوان الحرمان والقهر والإبعاد والتّشريد. في الوقت نفسه يبين أنّ هذا الابن - رغم ذلك - يصّر على الالتصاق بالأرض، ويعاهد على البقاء وفيًا لانتمائه وأصالته:

يامـــــــــــالسكين
هذا تــربي من قــــــــديم
أسقيه من عرقي، وأفراحي الحبيبه
أسقيه ذكراي الكئيبة
أسقيه ألحان البطولة
هذا ترابي من قــــــــديم
يامـــــــــــالسكين
تفديه كلّ جوانحي ودمي الحميم
يا مترفين
إنّنا هنا، أبدا هنا
ذعر وإعصار ونار
لاشيء... يمنع سيلنا
إن تقعقعت في أفقكم عزماتنا وسلاحنا
إنّنا هنا، أبدا هنا
نمشي على الشّوك المدرّب
ونشيد دنيا من أمانينا الحبيبه
دنيا طليقة
في أرضنا الملأى بطاقات الحصيد
سنعيش أحرارا وصيد
في أرضنا البكر الولود (31)

يقول الدكتور صالح خرفي: « ومع الإصرار الانتمائي تتصاعد المقوّمات الأساسيّة للوطن، وتبرز الملامح المميّزة له، التّاريخ بذكرياته الماثلة، الدّين بعقيدته وإيمانه، القوميّة بأصالتها وعراقتها، اللّغة بثرائها وحضارتها، ويتغنّى الشّعر

بعروبة الثّورة وعروبة الجزائر كما لم يتغنّى بها من قبل، وتنطلق القوميّة انطلاقة شعريّة، فيها عنف الاحتباس الخانق لها طيلة الاحتلال الفرنسي، وتطفو لفظة (العروبة) على كل بيت في كلّ قصيدة، وكأن الإصرار من الطّرف الآخر على أغنيّة (الجزائر قطعة من فرنسا)، يزيد من جموح هذه اللفظة وإلحاحها على الأبيات والقوافي» (32)

لخصّ الباحث النّتائج التي يحصل عليها المستمسك بهويتّه، المصرّ على إثبات أصالة انتمائه، وسجّل المقوّمات الأساسية للهويّة والقوميّة. وقد استنتجها واستخرجها مما قرأه في شعر الشّعراء الجزائريّين، الذين واجهوا مقولة المستعمر (الجزائر قطعة من فرنسا) وما استتبع ذلك من سنّ قوانين وإصدار تعليمات واقتراح وسائل قمعية لتجسيدها في أرض الواقع. إلاّ القوميّة المخنوقة -بسبب هذه الممارسات القاسيّة- تنطلق انطلاقة المارد من قمقمه، لتؤكد على الانتماء الحقيقي الذي لا مساومة فيه: الانتماء الدّيني واللّغوي والفكري.

إذا تغنّى الشّعراء الجزائريّون بوطنهم كلّ هذا الغناء، وأظهروا كلّ هذا الهيام، فهم لم يجانبوا الصّواب، ولم ينحرفوا عن سواء السّبيل في الدّعوة إلى القوميّة التي هي أعمّ من الوطنية، بخاصة وأنّهم كانوا يمزجون بين ماهو وطني وما هو قومي، ويتناولون المقّومات التي جمع العرب والمسلمين، أي كانوا مهتّمين وحريصين على توعيّة الناس بمفهوم القوميّة بمعناها الواسع. مع أن الحديث عن الوطن هو – في الحقيقة جزء أو لبنة في طريق بناء صرح القوميّة.

وهم في صنيعهم هذا كانوا متأسين بسيرة الرّسول صلى الله عله وسلم الذي أمر بأن يبدأ المرء بمن يعول، استجابة لأمر الله تبارك وتعالى: (وانذر عشيرتك الأقربين) (33) وما عشيرة الشّعراء الأقربون سوى الجزائر، التي هي جزء من العالم والإسلامي إن صلحت نفعت وإن طلحت ضرّت.

2- التّوعية التّاريخيّة:

حارب الشّعراء في إطار التّوعيّة التّاريخية - ظاهرة التّمرّد على الماضي، والتنكّر لما يربط الشّعب الجزائري به: من مقوّمات ومبادئ قرنوا ذلك بالكشف عن الملامح البارزة في تاريخ الجزائر، والإبانة عن الصّفحات البيضاء في هذا التّاريخ.

وكانوايعمدون إلى شخصيات تاريخيّة، يذكرون مناقبها، ليطلعوا الشّبّاب على بطولاتهم وأمجاهم، حتّى يستنهضوا هممهم، وينفخوا فيهم روح الانتماء والولاء للتّاريخ الإسلامي والعربي.

كما عمل الشّعراء على تحديّ المستعمرين والمستشرقين - على السواء - بسرد القيم الحضارية والإنسانية التي عرفها التّاريخ العربي-... ـ (34).

هذه الإشارات من شأنها تقوية الروح القوميّة في النّفوس، وتركيز حقيقة الهويّة في الأذهان وهي التي جعل الشّخص -إذا وعاها حق الوعي- واقفا كالسّدّ أمام كلّ من يحاول تشكيكه في إنيتّه، وتبقيه دائما معتزّاً بشخصيّته مهما يساومه فيها غيره، ومتعلّقا بأرومته مهما يكن حال وطنه، ومهما يلحقه من بلاده.

والشّعراء كما يقول د. محمد مصايف (ت 1987) « عندما يذكرون الماضي ولاسيّما المشرق منه إنّما يفعلون ذلك تخليدا لروح النظال في الشّعب، وطلبا للدّروس والعبر التّاريخية التي توعي الفرد والجماعة بواجباتهما نحو الوطن، وتذكيراً للغزاة بأنّ لهذا الشعب ماضيه الآغر الذي يشدّه، وشخصيته التي تقيه من كلّ ذوبان» (35).

هذا المنهج الذي اختاره الموجّهون للشّعب الجزائري واعتمده الشّعراء الجزائريون، جعلت الشّاعر مفدي زكرياء يقول سنة 1957 عام الانتصارات في ملحمه الثورة

الجزائرية :

وعن أصلابنا قد ورثنا
دَمًا حرًا وأضلاعًا صلابا
...وَخُضنا ثلاث سنين دأبًا
فأصبحنا من التّحرير قابا
فلا نرضى مساومة وغبنا
ولا نرضى لسلطتنا اقتضابا
ولا نرضى شريكًا في حمانا
ولو قسمت لنا الدّنيا منابا (36)

بهذه الرّوح القوميّة الصّادقة يرسل محمد العيد آل خليفة نفثات متأسفا على حال الانهزامية والذلّة التي لازمت بعض ضعفاء النّفوس. مصحوبة بلفتات مهمة هادفة إلى ربط الخلف بتاريخ السّلف، بالإشارة إلى الشّخصيات الكبيرة التي أنجبها التّاريخ الإسلامي. قال الشّاعر محمد العيد سنة 1949:

لنا وطن مثل الفراديس بهجة
فكيف رضينا أن يداس وينهبا
وكيف رضينا أن نعيش أذلّة
ضعافا يرانا الغير أحقر من هبا؟
حيارى كقطعان جفتها رعاتها
فأغرت بها خصمين: ذئبا وثعلبا
ألسنا من الأجناس أفصحهم فما
وأسمحهم دينا وأصلحهم أبا؟
بنا درّت الدنيا عليهم بخيرها
وأخصب منها كلّ ما كان أجدبا

ولدنا وأنجبنا عليا وخالدا
وعمرو ومعنا وابن قيس ومصعبا
وهل أنجبوا مثل الغزالي باحثا
ومثل ان خلدون خبيراً مدربا؟
وهل أنجبوا مثل ابن حيان جابرا
وهل جرّبوا من قبل ما كان جرّبا
وهل نشروا في الكون عدلا ورحمة
كأجدادنا أم صّيروه مخربا؟(37)

بينما يستغلّ الشّاعر أحمد سحنون حلول شهر محرّم فيحيّيه ويستنهض همم شبيبة طه وفتية الضّاد بالرّوح نفسها التي أبداها محمد العيد والمعاني ذاتها، قال سنة 1366 هـ/ 1947:

يافتية الضّاد هذا شهر المحّرم حيّيا
شهر تألق فيه تاريخنا عبقريّا
...عودوا إليه، ففيه ما يستفز الوطنيّا
فيا شبيبة طه وجنده المفديّا
ومن بذكراه أضحى رغم العوادي حفيّا
محمد ليس يرضى بأن تعيش شقيّا
وإن قنعت بدون يكون منك بريّا
إن لم تكن مثل طه فلست في طه شيّا
تبني كما كان بيني مجدا يطول الثريّا
إلى الإمام لتحيي ما كان حيّا
إلى الإمام لتقصي عن الحمى الأجنبيّا
عار على جند طه ألاّ يكون قويّا (38)

في هذه اللّفتات تكون الفرصة مواتية لبعث الأمل في النفّوس، والثقّة في الذّوات؛ إذ أنّ ما قام به الآباء والأجداد غير ممتع أو مستعص على الأبناء والأولاد. كما أنّ في هذا المسلك تتوثّب القوميّة وتتقيّظ بين الماضي والحاضر، وتستشرف المستقبل في تواصل لا يقبل الانقطاع والبتْر أبدا.

فعلا عملت هذه الإضاءات التّارخية على إخراج الشّعب الجزائري من فضاء التّيه إلى مجال الاهتداء، ومن دوامه الضّياع إلى منطلق الاقدام، ومن وضعية الشّك إلى حال اليقين بأنّ له، شخصيّته المتميّزة وكيانه المستقّل، وأن لّه من المؤهلات ما يساعده على خوض غمار الحياة بكلّ كفاية وثقة نفس.

هكذا أتت التّوعية التّاريخية بثمارها، حتّى إذا لاحت بشائر الثّورة التّحريرية « كانت الشخّصية القوميّة أرسخ قاعدة لانطلاقها، وأقوم سبيل لصمودها واستمرارها، وفي هذا المنعرج التّاريخي تصبح اللّفتة إلى الماضي يمينًا وقسما وعهدا شريفا، وتغدو الذكرى أبعد ما تكون عن الشفّاعة والاستعطاف وأقرب ما تكون إلى تجديد العهد وتأكيد البيعة:

هذي يميني عن الشّبان صادقة
خذها لأحمد عهدا عند رجعاكا
واذكر له أنّنا قمنا على محن
شعبا كريما عزيز النّفس دراكا(39)

هذه صورة من التّجربة الشّعرية الجزائرية في إثارة أحد مقّومات القوميّة، هو التّوعية التّاريخية إنّها تجربة قاسية، لكنّها كانت صامدة ثابتة. سارت متدرجة في مسلسل مترابط الحلقات، لم تنقطع، ولم تتأثر بما وقف في وجهها من عقبات ومثبّاطات أو ملهيات ومغريات، وضغوط وتهديدات... حتى وصلت بالجزائر إلى شاطئ الآمان، فتحرّرت وانعتقت، واسترجعت كرامتها، فحافظت بذلك على هويتها وتمكنّت من قوميتها.

في ختام هذا المبحث يمكن أن أسجل ملاحظتين:

1- كي يبرهن الشّاعر الجزائري على عراقته وعراقة أرومته، وكي ينفّس عن كربته، ويخفّف من تأثير المحنة أو المأساة على قلبه كان يلجأ إلى الماضي وأمجاده بكثير من الحماسة والزّهو والافتخار، هذا بدوره كان يعينه على استمداد المدد المعنوي والنّفسي، لتجديد الثّقة في نفسه، وإعادة الآمل إلى قلبه، لينطلق في العمل والحركة بأكثر عزيمة وإرادة.

2- لم يكن تعلّق الشّعراء الجزائريين بالماضي الزائل والبكاء على المجد الآفل هروبا من الحاضر المؤلم والواقع المرّ، كما سجل ذلك الدكتور عمر الدّقاق على الشّعر العربي(40) بل كان لغرض إثارة الحماسة في نفوس الأخلاف كي تنهض لتستضيء، بتجربة الأسلاف، وتعمل على استرداد المجد الضائع والكرامة المدسوسة، وتأخذ من الماضي ما يعينها على مواصلة الدّرب واستئناف المسيرة. كما قال الشّاعر الربيّع بوشامة مخاطبا أبناء الجزائر:

سكنتم من ذرا الأوطان في حرم
مقدس، ساده مستعمر عاد
قوموا لحفظ تراث من مكارمكم
وحطّموا كل أغلال وأصفاد
ألا ادأبوا لتعيدوا للحمى سيرا
كريمة حاطها تاريخ أجداد(41)

هكذا تبيّن هذه التجربة أنّ بامكان أي شاعر معتزّ بشخصيّته، معتزّ بهويتّه، أن ينحو منحى أولئك الشّعراء، ليصون قوميّته من المساومة وهويتّه من المزايدة وكرامته من المداهمة فلنردّد مع مفدي زكرياء في النّهاية وفي كلّ وقت:

نحن قوم جدودنا ملكوا الدنيا فهيهات أن نعيش عبيدا (42)

3 - وصف الطّبيعة:

إذا بحثنا عن موضوع الطّبيعة في الشّعر الجزائري - بخاصة ما قيل منه في عهد الاحتلال الفرنسي- لم نجده سوى نفحات ونفثات، تتناول ما يعبّر عن المأساة التي عاشها الشّعب، وهو يرى بأمّ عينيه أرضه تسلب منه، ومواطنة يداس وجمال الطّبيعة في بلاده يتحوّل إلى دمن.

قد يستغّل الشّاعر اشتداد الضّيق عليه وتأزمّ نفسه، وتوتّر أعصابه، وامتلاء قلبه كمدا، بسبب ما يحيط شخصيته من إهانة، وما يلحق وطنه من مآس، فيلجأ إلى الطّبيعة يتناول مظاهرها وبعض أوصافها، فينقل إليها ما يعيشه داخل نفسه، ولهذا تغد وهذه اللّوحات وهذا الوصف، وهذا الاستعراض رموزا وإيماءات تفصح عمّا أصاب الأصالة والهويّة. من هنا توظيف الطّبيعة عند هؤلاء الشّعراء إحدى الوسائل المختارة لبعث الوعي القومي في النّفوس.

قال محمد العيد آل خليفة سنة 1932 يخاطب نفسه:

فليس بحرّ من يرى العزّ ممكنا
ويبقى أسير الذل تحت التغلّب
وأغرب خطب هالني خطب موطن
لنا منعته الشمس أسراب أغرب
كما حبست عنه الرياح وعارضت
له.دون سيل القطر من كل مسرب
بأجنحة سود كأن خيالها
ظلام بليل قاتم الوجه غيهب
فيالك فردوسا تحوّلت دمنة
ويا وحشتا من أغرب فيك نعّب

وياوحشتا من محنة نكبت بها
سلالة مازيغ وفتية يعرب
تسام بخسف وهي ولهى حزينة
وتوسم إفكا بالخنى والتعصّب(43)

نشعر في هذا النّصّ بهذه الغلالة السّوداء وهذه القتامة، التي تعبّر عن اشتدادالأزمة وتكشف عن الأنّة العميقة المنبعثة من المأساة الجاثمة على الوطن، ونلمس أنّ الطبيعة الفاتنة الأخّاذة توضع أمامنا حياة بائسة قاسية،وطبيعة مقاومة مقاتلة.

نسّجل منذ البداية أنّ الشّعراء في تعاملهم مع الطّبيعة كانوامجسدين نداء مصطفى الأشرف، الذي هو نداء أملاه الدافع الوطني والقومي والعمل الرّسالي: «ولسنا ندعو الشّعراء إلى مدح طبيعة مؤنقة ملّطفة مخنّثة، طالما أشبعنا وصف ربيعها، وأروانا إلى حدّ السآمة والتّخمة، وإنّما هي طبيعة الشنّفري والطّرماح، ذات الذئب والطير وطبيعة ذي الرمّة وابن شهيد، ذات الجنّ والغول، وغابات أساطيرنا إلى النّشوة الرومنطقيّة، بل إلى مفاهيم الحريّة العاملة وإباء الضّيم والخفاء الايجابي والالتحاء إلى الغاب»(44)

هذه المعاني التي أومأ إليها مصطفى الأشرف هي المعاني التي تهدي الشّعراء إلى توظيف أشعارهم فيما يعين على بعث روح النّضال والتّضحية والفداء والاستماتة من أجل إثبات الهويّة.

أ- البحر:

وإذا أخذنا البحر نموذجا لهذا الأسلوب من التّعامل مع الطّبيعة فإنّنا نجده يحمل معاناة الشّعب ومأساة الجزائر ومحنة الشّاعر لا يوصف البحر إلا لتبثّ إليه الشّكوى، أو ليقّدم إليه اللّوم، أو ليرجى منه العطف، أو ليكشف إليه الوضع...

في هذا التّعامل رمز وتعويض وتنديد وتوعّد... هذه الدلالات وغيرها تصبّ كلّها في خانة النّضال والكفاح والتّمسك بمقوّمات الأصالة.

نشير هنا إلى أنّ الشّاعر الجزائري يلتجيء إلى البحر حين يكون مخزون النّفس، منكسر القلب، وحين يبحث عن العزاء والدّواء. يلتجيء إليه ليبتعد بروحه عن الأرض رمز الظّلم والقهر والنّفاق والرّذيلة والفساد. يلوذ إليه فرار من الاضطهاد والملاحقة والرّقابة...

إنّ البحر جميل وبديع وعظيم يحمل معاني الجلال والكبرياء والحسن والخلود، إنّه الكون الواسع والغضب الثّائر....

هذه هي المعاني التي نلتقى بها في الشّعر الجزائري، فالشّعراء لم يصفوا البحر، ولم يركنوا إليه هروبا من الواقع، ولم يلوذوا إليه طلبا للرّاحة والاستجمام. إنّما فسحوا له مجالات وفضاءات في أشعارهم ليصبوا فيه أفكارهم ومشاعرهم، عساهم يجدون آيات الدّعم النّفسي والمعنوي ما يمكنهم من القيام بواجب التّوعية والتّوجيه، بعيدا عن الرقابة الاستعمارية. ومن ثم ينبعث فيهم الأمل والرّجاء وروح العمل؛ لبذل مزيداً من الجهد في طريق الكفاح والنّضال. هذا الأسلوب في التّعامل مع الطّبيعة هو أحد الدّلالات القوميّة للعمل الشّعري.

يقول الدكتور محمد ناصر: « وقد اجتذب البحر الشّعراء الوجدانيين الجزائريين اجتذابا ملحوظا، اجتذبهم في حالتي السّكون الهادئ والثّورة الغاضبة، ووقف أكثر من شاعر أمام البحر هذه الوقفة التي عرف بها الرومانسيون، فهم يلتجئون إليه التجاء المكروب، ويرتاحون إلى مرآه ارتياح المتعب. وغدا عندهم مظهرا للحريّة اللاّمتناهية، التي هم دائمو البحث عنها، ومعبرا عن الثّورة المتجدّدة الرافضة، التي تلائم أنفسهم التي لا ترضى بحال أبدا » (45) من الشّعراء الذين وقفوا أمام البحر كثيرا، واستوحوه واستدرجوه واستدروه ليستجيب لحظهم

النّضالي، ويحتوي مشاعرهم، نذكر محمد العيد آل خليفة، أحمد سحنون، مبارك جلواح، الطاهر بوشوشي، عبد الكريم العقون، عبد الله شريط،محمد الأخضر عبد القادر السائحي...

نحاول فيما يأتي تقديم نماذج من أشعار أحمد سحنون بخاصة - الذي ارتبط بالبحر ارتباط ودّ وحب. وقد ناجاه مرّات عديدة، وخاطبه مخاطبات متفاوتة المستويات. لهذا أطلق عله زميله مصطفى بن رحمون (1921-1984) لقب (جار بحر الروم) (46).

كان أحمد سحنون يعدّ البحر صديقه، يبادله الأحاديث، يبثّه شكواه، يفضي إليه بما يختلج في صدره، وما يشعر به من الأحاسيس التي هي أحاسيس الفرد الجزائري المقهور، ومشاعر الوطني الموتور:

يابحر يا إلف روحي ... وأنسها حين تسأم
نجواك دنيا خيالي ... إذا دجى الليل خيم
ففي هديرك شعر ... به النسيم ترنم
وفي صفائك سحر ... كأنّه سحر مبسم
وفي هدوئك سر ... من الحقيقة أعظم
يابحر حسبك أنّي ... بكلّ ما فيك مغرم
فأنت للشّعر وحي ... وأنت للحزن بلسم(47)

وأحمد سحنون حتى وإن أشبه الرّومانسيين في اللّجوء إلى الطّبيعة، يحتمي بها من أحزانه، ويتدفأ بحنينها ورأفتها، لتبدد مابه من حزن، وتكشف مابه من همّ وغمّ. فإنّه كان يترجم عن أحزان بني جلدته، وينقل مأساة شعبه، وينفث ما بصدور قومه. وهنا تكمن القيمة القوميّة لشعر الطبيعة عنده وعند معظم الشّعراء الجزائريّين بعامّة.

قال الشّاعر نفسه:

فكأنّ موجك وهو يعثر بالصّخور إذا اصطدم
دمع جرى من موجع فقد التّصبّر فانسجم
يابحر ما هذي الشّكاة؟ ألست توصف بالعظم؟
ماذا التّبرمّ بالحياة كأنّما أشجاك هم
أتضيق ذرعا كابن أدم بالوجود وما انتظم
أتضج من عبث السّياسة، كم أباد وكم هدم
ومن المعمّر إذ طغى، ومن المسيطر إذ ظلم
أتضجّ من شرف يداس ومن حقوق تهتضم
أتضجّ من حرّ يهان، ومن وضيع يحترم؟»(48)

في النصّ حديث عن السّياسة الاستعمارية والمعمّر الفرنسي المستبّد الطّاغي، وفيه تعليق على الشّرف المداس والحقوق المهضومة، وكلام عن المفارقات في حياة البشر: حرّ يهان ووضيع يحترم.

هذه الإيماءات وهذه الإفضاءات هي إسقاطات نفسيّة جماعيّة - إن صحّ التعبيّر- وردت على لسان فرد. إنّه في حقيقتها كشف عن حالة الضّيق والعسر التي عاشها الشّعب الجزائري. حاول الشّاعر الكشف عنها بطريقة فيها التّستّر والتّخفّي برمز البحر وبأسلوب الخطاب الفردي الموج باللّوم والعتاب والاستنكار.

في هذا وعن الشّعر الوجداني يقول محمد ناصر: « إنّه شعر لم ينفصل قطّ عن هذا الإحساس الوطني الثّوري في جميع مراحله، فإنّ النّوع الوجداني لدى الشّعراء كانت تمتزج فيه العواطف الذّاتية بالمشاعر الوطنيّة امتزاجا رائعا، وأحسب أنّه من الصعب على الدّارس أن يفصل بين الإحساسين في نصّ واحد أحيانا » (49)

أمّا عبد الكريم العقون (1918-1959) فيقول في قصيدته (من وحي

البحر) سنة 1947 معبّرا عن هذا الحسّ الذي يجده في نفسه نحو البحر، الذي يلقى فيه الأنس والطمأنينة والسّلوى من عذابه وحزنه، والهدوء والسّكينة من ثورته الجامحة وغضبه الثّائر.

ها أنا اليوم قد وقفت أناجيـ
ـك، أيا بحر، فاستمع لنشدي
إنّك اليوم مؤنسي وسميري
ونجيّي في قفر هذا الوجود
سكنت نفسي الحزينة وارتاحت
إلى حسنك البديع الفريد

علّها اليوم في جوارك تنسى
ما تعانيه من بلاء شديد
هل أرى فيك بلسما لجروحي
أو ألاقي تحرّرا من قيود (50)
أم كلانا قد أرهفته الليالي
بصروف ما فوقها من مزيد (51)

البيت ماقبل الأخير يحدد الهدف من هذا الالتجاء وهذا الاحتماء.

ب- الصحراء

فسح الشّعراء الجزائريون مجالا واسعا وفضاء كبيرا للصّحراء في أشعارهم، ليبثّوها كثيرا من أفكارهم القوميّة، وليقدّموا إليها مجموعة من مشاعرهم الوطنيّة. وهم يرمون في كلّ ذلك إلى إثارة النّخوة في النّفوس التي كادت أن تفقدها بسبب الظّروف القاسيّة التي عاشتها، وكانوا يهدفون إلى إرجاع النّاس إلى فطرتهم في معتقدهم وأخلاقهم وسلوكهم، بعد أن أفسدتها أدناس المدينة

وصخبها.

وكانوا يَصْبونَ إلى تذكير النّشئ بالبطولات التي احتضنتها على أرضها، عبر تاريخ الجزائر وغيرها؛ لشحذ الهمم وتحميس الشّعب لإظهار بطولات تساعد على الخروج من التّخلّف والحرمان والقهر والضّيم.

كما لم ينسوا وصف جمال الصّحراء ومفاتنها بقصد التّمتّع بهذا السّحر والحسن، وبهدف التّذكير بضرورة الحفاظ على هذا الجمال وحمايته من التّخريب والإهمال، واستثمار خيراتها وثمارها في مصلحة الوطن. وهو ما يمليه المطلب الوطني والواجب القومي. من الشّعراء الذين عنوا بوصف الصّحراء مفدي زكرياء، أحمد الطيّب معاش، أحمد سحنون، صالح خرفي...

يغازل مفدي زكرياء نوفمبر سنة 1957، ويطارحه مشاعره نحوه، ويعاهده على البقاء معه وفيّا، يسنده كي يحرّر الوطن من الأعداء والغاصبين، ويذكره بأنّ الأرض الجزائرية كلّهاتنتفض لتتحرّر من نير الظّالم الغاشم.

من جملة هذه المناطق الصّحراء، التي يعدّ الشّاعر أحد أبنائها، ترعرع فيها صبيّا، ودرج فيها فتى، امتزج بكثبانها، وتسلّق نخيلها، واغترف من مائها، وأكل ثمارها وسامر لياليها...

عمد الشّاعر إلى وصف مفاتن الصّحراء في صورة رومانسية حالمة، مستذكرة الذكريات الحلوة والمرّة التي سجلها الشّاعر على أرضها.

إلاّ أنّ ذلك لم يكن الغاية. إنما كان المرمى هو إظهار التعلق بها وتحريك النفوس كي تحس بهذا الذي يشعر به هو، فتثور لكي تتمكّن من الاحتفاظ بها.

هذه اللّفتة تدخل ضمن رسالة الشّاعر الوطنيّة، وهي توعية النّاس بضرورة الثّورة ضدّ كلّ مغتصب للأرض، وكل معتدٍ على الحمى:

وفي صحرائنا جنّات عدن
بها تنساب ثروتنا أنسيابا
وفي صحرائنا الكبرى كنوز
نطارد عن مواقعها الغرابا
وفي صحرائنا تبر وتمر
كلا الذهبين: راقا وطابا
وفي صحرائنا شعر وسحر
كلا الملكين: حطّ بها الركابا
وفي صحرائنا أدب وعلم
زكا بهما المثقّف واستطابا
وفي واحاتنا ظلّ ظليل
تفور به نواعرها حبابا
... يدغدغ تحتها الغنّام نايا
فينطلق من فم الغنم الربابا
... فما يدري بجنتّه نفاقا
ولا كذبا ولا خان الصّحابا
... وتحت نعالها استقلال شعب
يلاقي في (المنظّمة) الصعابا(52)

نلحظ في النّص تكرار لفظة صحرائنا التي تبين عن تمسّك الشّاعر بهذه الأرض. وهيامه وعشقه لها. كما نسجّل هذا التّتبّع الدّقيق لما تتميّع به الصّحراء من كنوز وخيرات. كما نلحظ استعمال الشّاعر كلمات وصور تعطي الصّحراء قيمة كبيرة، فتعمل على اجتذاب النّفوس إليها وصدّها عن الانجذاب إلى غيرها: (جنات عدن، كنوز، تبر، سحر، أدب، علم، يراقص، يدغدغ، نواعر...)

مما يؤكد ما قلناه من أنّ الغاية من كلّ هذا الوصف هو إثارة النّخوة واستثارة الهمم، للنّهوض للقيام بواجب الافتداء لافتكاك الأرض من ربقة العدو، هو ما جاء في نهاية تلك اللّوحة:

وتحت نعالها استقلال شعب. يلاقي في (المنظّمة) الصعابا

في نصّ آخر يسجّل الشّاعر نفسه المزايا والأفضال التي تتميّز بها الصّحراء، ويسرد الأخلاق التي تتمتّع به. ألا يكون ذلك دعوة إلى التعلّق بهذه الأرض؟ ونداء الى أخذ دروس منها في التضّحية والفداء؟ ونصيحة تعلّم الأخلاق والخلال الحميدة منها؟

إنّ هذا هو الحسّ الوطني والشّعور القومي اللّذين يجب أن يتحلّى بهما الفرد؛ حتى يبقى وفيّا لوطنه وقومه و مقوماته ومبادئه وأصالته مهما يتقلّب الزمان، وتدلّهم الخطوب، وتتغيّر الأحوال، ومهما تكن حالة الوطن من العسر واليسر...

قال مفدي زكرياء سنة 1972:

ألا ما لهذا لحساب ومالي
وصحراؤنا نبع هذا الجمال
هنا مهبط الوحي للكائنات؟
حيال النّخيل وبين الرّمال
ومهد الرّسالات للعالمين
ونور الهدى ومصبّ الكمال
هنا العبقريّات والمعجزات
وصرح الشّموخ وعرش الجلال
تبادلنا الشّمس إشعاعها
ويلهمنا الصفو نور الهلال

ونعدو فنسبق أحلامنا
ونهزأ من وثبات الغزال
وجنّبنا الغدر ماء الغدير
وحذّرنا الظّل نهج الضلال
وعوّدنا الصّدق راعي المواشي
وعلّمنا الصّبر صبر الجمال
وأخرجت الأرض أثقالها
فطار بها العلم فوق الخيال
توفّر للشّعب أقداره
وتكفي الجزائر ذلّ السّؤال(53)

ينسج الشّاعر صالح خرفي على منوال مفدي زكرياء، ويخاطب شهر نوفمبر سنة 1960، ويقسم أيمانا مغلّظة على أن يفتدي الجزائر ويفتكّها من براثن الأعداء بخوض معارك وتقديم ضحايا وتسجيل بطولات كبيرة... يستوحي هذه الشّجاعة وهذه البطولة من ملامح الصّحراء الطّاهرة الكريمة القويّة...

البيد سفح للأشم، كلاهما
للثّأر مشدود الأواصر والعرى
يامن على الصّحراء سال لعابهم
كم مورد فيها، سلوا هل أصدرا؟
أقسمت بالرّمضاء فيها، بالريا
ح الهوج، تنتعل الجديب المقفرا
بالنّاقة الوجناء فيه لم تزل
عربيّة الخطوات، شامخة الذرا
أقسمت بالحادي، وبالضحى

التى ناجى بها الليل المقمر
بالخيمة السّوداء، بالليل الأنيس
بنارها، ما انفكّ طائي القرى
بالنفط في الصّحراء عشقت سواده
الداجي، وعفت به النّضار الأصفرا
بالذّرة الرّعناء أقعد راجلا
إشعاعها المودي، وأعمى مبصرا
أقسمت بالصّحراء مهدا لانبثا
ق الوحي نقاها (حراء) وطهّرا
سنعيد ذكرى (القادسيّة) للنهى
تهوي بكسرى أو تطيح بقيصرا
سنشنّها (عمريّة) (سعديّة)
سنثير رملتها قتاما أغبرا
ذكرى سنجعلها، وتبقى عبرة
في الخافقين لمن وعى وتذكّرا(54)

هناك قصائد كثير تغنّت بالصّحراء والريف. إنّ الدارس حين يتأمّلها يقرأ فيها المشاعر الوطنيّة والمعاني القوميّة بأوضح ما يكون، وهو ما يجب أن يتشبّع به الشّاعر القومي، ويحذقه الفنّان صاحب الرّسالة.

إنّ التّعامل مع هذا الموضوع بهذا الصّورة يحمل الشّاعر على الاقتناع بأن الشّعر بعظمته وشأنه الكبير قادر في أيّة لحظة،وفي ميدان تحرك، وفي أية واجهة وجد، وفي. أي موضع وضع، وفي أي سبل سيق، وبأية وسيلة اقتيد... قادر على البقاء وفيا لهويته القوميّة، قدير على تحريك المشاعر الصّادقة في النفوس، وزرع الأفكار الصّالحة في الرؤوس. يعلّق الدكتور محمد ناصر على تعامل

الشّعراء الجزائريين مع الصّحراء قائلا: « ويمتزج بنزوعهم الفردي هذا نزوع قومي، يتمثّل في الشّعور بأنّ المدن بحضارتها ومدنيتها، إنّما تمثّل وجه الغرب المستعمر في حين يظّل الريف والصّحراء بطهارتهما وإشراقهما يمثّلان وجه الوطن الحقيقي، الذي يفسده المستعمر بحضارته المزيّفة، ولم يدنسها بأقدامه الدّخيلة» (55)

مجمل القول إنّ الطّبيعة عند هؤلاء الشّعراء لم ليكن القصد منه - في الدّرجة الأولى- إلاّ الإفصاح عن الإصرّار على التّمسّك بالأرض والتّعلّق به، والدّعوة إلى تحرير البلاد من ربقة الاستعباد، والنّداء سبيلا من تصوير الشّعور الوطني أصدق تصوير. وهو أحد مظاهر الرّسالة القوميّة.

4- تعامل الشّعراء مع اللّغة تعاملاً قوميّا

شعر الشّعراء الجزائريون بالغربة الثقافية في وطنهم بخاصة في عهد الاحتلال - إذ كانت الثقافة الدينية ضعيفة: غلواً في الجمود أو أفراطا في التّحلّل من الدّين، أو الدّعوة إلى الاندماج والتّجنيس، والانقطاع عن الماضي والارتماء في أحضان الحضارة الغربية. إلى جانب الضّعف في اللّغة العربيّة لأسباب عديدة... أحسّ الشّعراء - نتيجة لذلك- بخطر داهم يهدّد اللّغة العربيّة والإسلام بالتبع بما نتج عن ذلك من مزالق فكرية أصابت الأصالة في العمق، فعملوا على تدراك الأمر وإنقاذ الموقف، واتّخاد أيةّ وسيلة في هذا المجال، فهداهم تفكيرهم إلى سلوك مسلك عملي، وهو محاكاة الأساليب البيانية العالية في الكتابة كالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والأدب العربي القديم...

نظر لكون القرآن الكريم يمثّل عند الشّعراء الجزائريين (56) - كغيرهم- المعين الذي تؤخد منه التّجارب، والملجأ الذي يلجأ إليه في حلّ المشاكل، والقمّة التي وصلت إليها البلاغة والفصاحة فقد استلهموه - استجابة للدّافع القومي- في فضح كثير من دسائس الاستعمار وأهدافه التي ترمي إلى طمس معالم الشّخصية

الإسلامية العربيّة في الجزائر. واستيحائه في الكشف عن الصّراع الحضاري بين الاستعمار والانتماء العربي الإسلامي، والصراع الديني بين المصلحين والطرقيين، والصراع الأخلاقي بين المؤمنين والمنحرفين سلوكيًا وفكريًا...

وضمن الرّسالة القوميّة التي تحمّلوها، حاولوا الارتقاء بلغتهم والتّوسع فيها، في وقت ضعفت فيه الثّقافة اللّغوية - كما هو حالنا اليوم- وهو ما انجرت عنه انزلاقات هي من المشاكل التي تعاني منها الهويّة والقوميّة التي نرجو أن نعمل جمعا على تداركها- إذ وجدوا في القرآن الكريم الغناء من هذا الفقر فعملوا على احتذائه والسّير على نسقه في التّعامل مع اللّغة واستعمالها في سبيل بعث الثقافة اللّغوية القوية، ونشرها في أوساط الجماهير، والوقوف والصمود أمام التّيارات التي تعمل على الحطّ منها وإضعافها.

وقد كانوا في هذا الاستعمال يستغلّون العاطفة الدينيّة في المتلّقين والمخاطبين، فكانوا يقدّمون أفكارهم ومشاعرهم في سياق من الألفاظ القرآنية التي تحمل دلالات تعين على إثارة عاطفة، أو تساعد على تصحيح فكرة، أو تسعى إلى زرع الأمل ونزع اليأس، وتحثّ على النّهوض لمقاومة الظّلم والانحراف، والقيام رمن الكبوة، والخروج من التّخلّف، ممّا كان القرآن الكريم قد استعمل فيه هذه الألفاظ اللّغوة في كثير من الأحيان.

في هذا الاستعمال والاستلهام من هذا الرّافد في هذا الظّرف العصيب، الذي عاشته الجزائر (عهد الاحتلال) تتّضح الروّح القوميّة التي تسعى إلى التّحريض على الاستمساك بالمبادئ، وإثبات الإنية وحماية الذات، ومحاربة سِياسة المسخ والتذويب والتّشويه والتّغريب.

وهنا تظهر رسالة الشّاعر الفنّان القومي، فليعتبر أولو الأبصار والألباب.

لقد فهم الشّعراء أنّ هجوم الاستعمار على اللّغة العربيّة هو محاربة للهّوية

الإسلامية وللانتماء العربي (57) لها قاوموا هذا التيّار والاتّجاه، الذي يرمي الى الإنقاص من مكانة اللّغة العربيّة، ويهدف إلى قطع الصّلة بينها وأصولها ومنابعها. فكان الرّجوع إلى القرآن الكريم ضرورة تمليها طبيعة المعركة الضّارية من أجل البقاء.يقول الدكتور محمد ناصر: « ... إن هذا الموقف لم يكتسب بعداً ثقافيًا أو اجتماعيا أو دينيا فحسب، وإنّما اكتسب أيضا بعدا سياسيًا، فقد كان الحرص على بقاء اللّغة العربيّة في الألسنة فصيحة نقيّة جزءا من الحرص على المقوّمات الأساسيّة للشّخصية الجزائرية أمام أفواج الفرنسة والمسخ» (58).

أشير في النهاية إلى أن ظاهرة استلهام لغة القرآن كانت أكثر بروزا في الاتّجاه التقليدي في الشعر الجزائري، الذي يمثّل مرحلة الانبعاث في الأدب، ومرحلة النهضة الفكرية والاجتماعية، التي تميزت بميزة بعث الأساليب العربيّة الصافيّة. والتّمسك بأمتن الروابط القوميّة وهي اللّغة العربيّة، وما تنطوي عليه من ثقافة العرب و أساليبهم...

من هذا عدّ الاتجاه التّقليدي في حد ذاته ظاهرة قومية، وما صنعه الشّعراء الجزائريون هو ما قام به إخوانهم في بلدان. العالم في العربي كما يشير إلى ذلك الدكتور عمر الدّقاق (59)

5- العروبة في الشّعر الجزائري

إنّ الشّعراء الجزائريين كانوا أكثر تشبثًا بمقومات العروبة والإسلام، لأنّ وطنهم حورب أكثر من غيره؛ في عقيدته ولغته وتاريخه إلى درجة أن وجد فيه شباب كاد يفقد الشّعور بوجوده، فضلا عن معرفة حقيقة انتمائه، أي هل له ثقافة خاصة يصدر عنها، وأصالة معيّنة يرجع إليها؟

وقد استمسكوا بتلك المقّومات للوقوف أمام الهجمات والتّشويهات التي كانت تسعى إلى استبدال دين بدين ولغة بلغة وعادات بعادات، هذه بعض عناصر القومية التي:

« طاردها المستعمر شبرا شبرا، وأحكم عليها الخنق مسجداً ومدرسة حرّة وكتابًا عربيًا وصحيفة وطنية وناديًا ثقافيا، وبذر الفرقةِ مذهبًا وعقيدة، عرقا وأرومة» (60)

من مظاهر هذا الاستمساك التّغني بالعروبة فكرة وعقيدة ومشاعر وقيمًا انطلاقا من الصّراع اليومي والمواجهات المستمّرة لهذه المقوّمات قال صالح خرفي تحت عنوان « صرخة جزائرية» وذلك سنة 1958.

لاتلمني على الغنا والتّغنّي
بأماني عروبتي، لا تلمني
بينها فرقَ الزمّان وبيني
ورمتني بهجرها والتّجنّي
ثم وافت في نشوة المطمئن
تتَهادى على جبال الجزائر
تيمت قلبها جماعة ثائر
لاتلمني عن العروبة فينا
إنّها تستفزّ ثأرا دفينا
إنّها حبّة ترنّ رنينا
تتحدّى قساوة المعتدينا
إنّها شمعة بتلك المغاور
نورها مزّق الدجى في الجزائر (61)

تبدو في هذا النّص الحسرة على اتّهام الجزائري بأنه ليس عربيًا، ويطفو عليه الأسى على اعتقاد أنّ العروبة مهجورة في الجزائر. وفيه في مقابل ذلك اعتذار لمن يلحظ إسراف الشّاعر في التّغنّي بالعروبة.

قام الشّعراء برسالة إعلامية تصحيحيّة لما يروّج عنهم وعن أوطانهم، من الانسلاخ من الدّين والتّخلّي عن العروبة. قال الشّاعر نفسه سنة 1958 ذاتها

تحت عنوان « الجزائر الثّائرة»:

من قال عنّا في العروبة قالةً
فقد افترى زورا علينا وادّعى
هي بعض ما ينساب بين عروقنا
هي وقْع دقّات تهزّ الأضلعا
هي طرفنا إن مسّه يوما قذى
متطاول، فلقد أقضّ المضجعا
ولو ارتضينا بالمذلّة عيشة
لمشى الطغاة بها إليها ركّعا
لكن حرف الضّاد في لهواتها
يأبى لغير العزّ أن يتضرّعا
وحشاشه انفت - ولو أدى بها
الإجهاد-أن تستجدي المستنقعا(62)

إذن انبرى الشّعراء يتغنّون بالعروبة، وفاء للأمجاد الغابرة، ومسؤولية تجاه الأجيال الصّاعدة إنّ هذا السّلوك هوأحد الوسائل في القيام بالواجب القوميّ نحو الهوية. من هؤلاء الشّعراء الذين اهتّموا كثيرا. بهذا الموضوع الشّاعر مفدي زكرياء، الذي نجد في شعره ألفاظًا كثيرة تدور في فلك العروبة مثل (العروبة) العربية، العرب، يعرب، عربي، الضّاد، الفصحى، الشّرق، المشرق...)

نقف فيما يأتي عند بعض دلالات العروبة عنه، لبيان بعض جهده في تثبيت الهويّة القوميّة (63)

قال سنة 1956:

وخلّدت من مجد العروبة صفحة
رسمت على عنوانها وجه قحطان

وملء عروقي صارخ دم يعرب
فألهمني ينبوع يعرب تباني
... وهمت بأبناء العروبة يافعا
أرى كلّ أبناء العروبة إخواني(64)

في هذه اللّوحة رسم الشّاعر شخصيّته، وكشف عن هويّته، وأفصح عن منهجه في الحياة، الذي لن يكون سوى السّير في ركاب العروبة والإصدار عنها في كلّ حركة وسكنة، والعمل على حمايتها والذّود عنها.

سجّل افتخاره بما وهبه، وما تحصّل عليه، وهي العروبة التي تمثّل الإطار السّليم للأصالة شريطة أن يكون هذا الشّيئ الموهوب ساعيًا أو عاملا على جمع الصّفّ ولمّ الشّمل وتوحيد خطّة العمل:

وهبنا العروبة جنسا ودينًا
وإنّا بما قد وهبنا رضينا
إذا كان هذا يوحّد صفّا
ويجمع شملا رفعنا جبينا (65)

بل يصل الشّاعر الغاية في الاندماج في العروبة والعربية، اللّذين نصّب نفسه محاميًا عنهما، حين يستعرض حالة بعض العرب، الذين تزوّجوا بالأجنبيات، وذلّوا أمامهنّ، وتنكّروالأصولهم، ورضخوا لارادتهنّ... تتحركّ غيرة الشّاعر،وتنتصب مشاعره، فيمضي يعلن صراحة عن تمسّكه بالعروبة، واندماجه الكلّي فيها، ويتعهّد بالتّضحية في سبيلها، قال سنة 1972:

وبعض تزوّج بالأجنبيّة
وقال: مثقفة حضريّة
تراقصني وتراقص هذا
وذاك وتعبث عن حسن نيّة

وتختال بالميني جوب دلالا
وتستعرض المغريات الخفيّة
وتتركني .. لا جناح عليها
وتذهب للسهرة النّرجسيّة
وتقضي الليالي خارج بيتي
وذلك من نعيم المدينة
وإن ولدت لست أدري لمن
كفى أنه من بني البشريّة
أناديه صالح عند الصّباح
وأدعوه موريس عند العشيّة
وإن زلّ يوما تناديه بيكو
فأحسب بيكو من البكويّة
وتدعو مساعدنا مون أراب
فأهوى العروبة والعربيّة
وأنحر في نحرها غيرتي
فتغدو أنا ثم أصبح هيّة(66)

إنّ الشّخصية الإسلامية والشّخصية العربيّة عند مفدي زكرياء وجهان لعملة واحدة، لا تقبل هذه العملة إلا بهما معا، ولا تتداول إلا بسماحة الإسلام وفي ظلال العروبة: الإسلام الذي ترعرع في مهدالعروبة، والعروبة التي استمدت قوّتها وقيمتها من الإسلام.

قال سنة 1937 يقدّم حقيقة الشّعب الجزائري للأشقاء

إنّ شعبا على العروبة والاسـ
ـلام قد شبّ أن يستحيل خيالا

إنّ جنسا مقدّسا عربيّا
ليس يرضى أن يستحيل خيالا
إنّ جنس النبيء صعب على الهضـ
ـم، فيا غرب كفّ عنك المحالا(67)

وقال سنة 1955:

نحن في هذه الجزائر إخوا
ن، جراحاتنا الثخينة حمرا
لحمة الضّاد والعروبة والتّا
ريخ والدّين آي ربّك كبرى
وهواها وماؤها وسماها
وثراها الزكيّ، شبرا فشبرا(68)

أمّا صالح خرفي فيحي سنة 1964 الوفود العربيّة المجتمعه في بغداد تحت إشراف وزراء التّربية العرب ويقول لهم:

لولا عرى الإسلام تجمع بينناالولا   العروبة لم نجد بشهيد(69)

وقال الشاعر عيسى لحيلح سنة 1984:

تبقى العروبة ماصانتْ عقيدتها   ماعاش حي، ومنه القلب مسلوب(70)

هناك ملامح كثيرة للعروبة في الشّعرالجزائري اكتفينا بالإشارة إلى بعضها. وقد لحظت أن الشّعراء قد انضووا تحت رايتها انضواء كاملا، وانصهروا في بوتقتها انصهارا كلّيا، وصدروا عنها في كلّ أنشطتهم وتحرّكاتهم.

إن الذي دفعهم إلى تناول مسألة العروبة بهذه الكثافة هو ما لحظوه من الهجوم العنيف على اللّغة العربيّة وما يتّصل بها، والتّشويش على الوحدة الوطنيّة

والوحدة العربيّة، وذلك بإهانة المقوّمات، وإحياء النّعرات والنّزاعات.

دلالات العروبة - حسبما تناوله الشّعراء كانت الأصالة، الأخوة التّضامن، الإباء التّحديّ، التّصدّي، الاعتداد بالنّفس، الكرامة، العزة...

بهذه المعاني التي تناولوا بها العروبة أكدوا على عروبة الجزائر وانتمائها إلى الأمة العربية والإسلامية. مهما تكن التّحولات التي تتعرّض لها، والمحاولات التي تسعى إلى تغيير وجهها الحقيق.

نسجل أنّ تناول موضوع العروبة بهذه الكثافة، وهذا التّوسّع هو رسالة مقدّمة إلى الأجيال، وتنبيههم إلى كيفية التّعامل، وتحديد العلاقة التي يجب أن تسود أبناء الملّة الواحدة، وذلك بالتّرفّع عن الاعتبارات العرقية والنّزاعات الطائفيّة، والسموّ عن الانشغال بالمسائل الهامشية، والاهتمام بالمهمّ، وما يخدم العلاقات فيما بينهم، وما يخدم الأصالة والدّين والوحدة..

هكذا تبرز القيمة للشّعر، حين يقوم برسالة التّصحيح والتّبليغ وتثبيت الهويّة. أريد في نهاية هذا المبحث أن أعرض وجهة نظر الدكتورة نور سلمان في قضيّة جوهرية، تبين البعد القومي في الكتابة والتّعبير والتّصوير، ودور اللّغة القومي في بلورة الأفكار، وطبع المشاعر بطابع متميّز، له من صبغة الانتماء والانتساب والولاء ما يعمقّ الوعي في نوع اللّغة المستعملة في الكتابة، وما ينبّه إلى ضرورة التّفطّن إلى المؤامرات التي تمرّ والدّسائس التي تحاك في التّهوين من طبيعة اللّغة المعتمدة في الخطاب والتّوصيل والتّبليغ، وهي المؤامرات التي نجد لها رواجًا في هذا الوقت، وهذا الزّمان الذي وهنت فيه الرّوح القوميّة، وهن فيه الشّعر، قالت الدكتوره: « لقد اهتم شعراء الجزائر بالعربيّة أكثر من زملائهم الشّعراء بالفرنسيّة في تأكيد عروبة بلدهم وكانت العروبة الحاجز الأكبر بينهم وبين المستعمر وأمّا الآخرون فقد انفصلوا عن هذاالمستعمر، لانّه بالدرجة الأولى مستعمر من غير

التّركيز على القوميّة العربيّة، ولعلّ السّبب الأكبر في ذلك جهلهم للّغة العربية وابتعادهم عن أجوائها، وبقي بعض هؤلاء الشّعراء بالفرنسية يتذكّرون أصلهم القبائلي ولغتهم البربرية» (71)

6- قضايا إسلامية وعربية في الشعر الجزائري :

حماسة الادباء الجزائريين للدين الإسلامي، وإحساسهم العميق بالعروبة، وشعورهم بالعلاقة الوطيدة بالعالم العربي والإسلامي وارتباط وطنهم (الجزائر) بهما، وتمسّكهم بالقوميّة مرجعيّة في العمل والنّشاط والإصدار والإيراد.

كل ذلك جعلهم يفسحون مجالاوحيزاً كبيرا للقضايا الإسلامية والعربيّة في أدبهم، وهو ما يفسّر هذا التّجاوب الكبير مع كل ما يحدث ويجدّ في العالمين العربي والإسلامي.

لقد كانو يفسّرون تلك الأحداث تفسيرا دينيا، وينظرون إليها برؤية إسلامية هذا التّناول هو في حقيقته نوع من الحرب التي خاضها الجزائريّون مع فرنسا عدوّة الإسلام والعروبة، وذلك بالوقوف أمام أساليبها الهادفة إلى قطع صلتها بالمشرق الإسلامي، وبتر إنتمائها إلى الأصالة الإسلامية أو تشويهها على الأقّل.

هذا التّفسير الدّيني للأحداث السّياسيّة في العالم الإسلامي موقف قومي له ما يبرّره إذ أنّه تعبير نفسيّ عن الاغتراب، الذي يشعر به الجزائريّون، وسط قمع استعماريّ بغيض يسلب الحريّة ويحارب الانتماء، ويقضي على الأصول، وينغصّ الحياة، وهو أيضا تعويض عمّا حرموه في وطنهم الأصلي؛ إذوجدوا في التّعبير عن قضايا العالم الإسلامي والعربي متنفّسا من الكمد، الذي يملأ قلوبهم.

هذا التّصرّف وهذا السّلوك درس يقدمّه هؤلاء الشّعراء لكيفية التّعامل مع القوميّة، التي هي الكفيلة بلّم الشّمل وجمع الشّتات وإبعاد التشتّتّ وتوحيد

الصفّ ونزع الشّقاق...

القوميّة التي تسعى الى الرّبط بين الشّرق والغرب، القوميّة التي تدعو إلى الالتحام وقت الرّخاء وزمن الشّدة، القوميّة التي توجب الوفاء وتفرض الولاء وتحفظ الانتماء في السّراء والضّراء.

القوميّة التي تربط بين الماضي والحاضر وتخطّط للمستقبل في إطار المبادئ والقيّم.

هذه المعاني والأفكار عالجها الشّعر الجزائري وهو يتناول القضايا العربية والإسلامية. من هذه المسائل علاقة الجزائر بالشّرق قال محمد العيد:

وابن الجزائر بابن الشّرق مرتبط وإن أحاطت به الأشواك أسوارا (72)

كان الحديث عن الشّرق في الشّعر الجزائري حديثا عن انتماء الجزائر للوطن العربي، والولاء الرّاسخ للعروبة لأن الشّرق يمثل- عند- الشّعراء الجزائريين- التّاريخ والفكر والرّوح، ويمثّل منبع القيّم العربيّة والإسلاميّة ماضيا وحاضرا. ومن هنا كان حلم الخلاص وطريق الوحدة الشّاملة. قال الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي: « داو الكلوم ياشرق، فما زلنا كلما استشفينا بك نجد الرّاحة والعافيّة ونظفر بالادوية الشّافية. ومازلنا كلّما استنشقنا ريحا استنشينا رندك وعرعارك، وكلّما استورينا زندا استجدنا مرخك وعفرك، ومازالت أفئدتنا تهوي إليك فتصافحها حرارة الإيمان وبرد اليقين وروح الأمان، ومازلت تتحفنا مع كل بازغة منك بالنّور اللاّئح والشّعاع الهادي، ومازال يتبلج علينا من سناك في كل داجية فجر، وتسري إلينا من صباك في كل غماء نفحات منعشة (73)

هذه المشاعر جسّدت أحسن تجسيد في الشّعر الجزائري.

قال محمد العيد آل خليفة سنة 1947، تحت عنوان « ياشباب»

ياشباب اتّجه إلى الشّرق واحفظ
كلّ كنز له إليه إنتساب
إنّما الشّرق نسبة العرب الاحرا
ر، لم تنقطع لها أسباب
إنّما الشّرق للعروبة كهف
آمن الظّل بالاذى لا يصاب
إنّما الشّرق للعروبة ورد
بارد الماء، سائغ مستطاب
هو صفو وغيره لك شوب
فرد الصّفو لا ترد ما يشاب(74)

أمّا مبارك جلواح العباسي (1908-1943) فهو يدعو إلي التّقدّم والأخذ بأسباب العلم، وإلى الوحدة والألفة، يطلب من الجزائريين أن يمدّوا أيديهم إلى المشرق الإسلامي في قصيدة بعنوان « أترى لذي الويلات يادهر غاية»:

هذي يد الشّرق الشّريفة أصبحت
لشتات شمل المسلمين تؤلّف
دعني أصافحها وألثم كفّها
وأكن كما تهوى كريما يسعف
يأيها الشّرق المعظم إنّ ذا
بدر المعالي كاد فينا يخسف
فأسرع بما فيه الحياة لنا معا
إذ أنت أعلم بالحياة وأعرف(75)

إذن إن العارف والمؤلّف بين الإخوان والمسعف والموئل هوالشرق، فما على الجزائريّين إلاّ أن يمدّوا أيديهم إليه لينجدهم..

كم هي القصائد التي عبّرت عن الحسّ الوجداني للشّعر الجزائري نحو الشّرق، لذا كان يستلهمه ويأخذ من تجاربه ما يجنّبه الانحراف والابتعاد عن أصالته. هكذا كان يعتقد الشّاعر الجزائري، وهو يأمل أن تكون الصّورة صحيحة، حتّى يكون التآسي سليما.

يتجلّى هذا التّعلق وهذا الاستنجاد وهذه الاستغاثة وهذا الارتباط بالشّرق كدافع قومي، أملته الظّروف العصبية التي عاشها الشّعب الجزائري، يتجلّى أكثر ما يتجلى في قصائد مفدي زكرياء مثل:«اقرأ كتابك» (76) و «على عهد العروبة سوف نبقى» (77) و «رسالة الشّعر في الدّنيا مقدسّة» و « قل ياجمال» و «فلا عزّ حتّى تستقلّ جزائر» و «معجزة الصّانع» و «فلسطين على الصّليب» (78)

في هذه القصائد حديث صادق ومشاعر فيّاضة وعواطف جيّاشة ورؤى عميقة ونظرات ثاقبة حول الشّرق، فيها اعتراف بتجاوب الأشقّاء بكلّ صدق وإخلاص مع القضيّة الجزائرية في أثناء الثّورة التّحريرية.

قال الشّاعرسنة 1955 تحت عنوان «على عهد العروبة سوف نبقى» وهو يتحدّث عن المغرب العربي:

به قلب العروبة مستقبل
إلى وطن العروبة ذاب شوقا
فدام على عروبته وفيّا
يراعي عهدها خلقا وخلقا
وولّى وجهه للشّرق، لما
تطلّع يبتغي للعزّ أفقا
فلم ينس العروبة وهو حرّ
وما نسي العروبة وهو يشقى

بلادالمغرب العربي (شرق)
وكانت قبلة العربيّ شرقا
... رسول الشّرق، قل للشّرق إنّا
على عهد العروبة سوف نبقى

... وأنّا في الجزائر خير شعب
عروبته مدى الأجيال وثقى
وأن الوحدة الكبرى إذا ما
تحرّرت الجزائر سوف تبقى(79)

في خضّم الأيّام التعسة السّوداء، التي فرضها الطوفان الاستعماري على الجزائر، لم تنس أبدا عروبتها، ولم تتنكّر لقوميتّها، ولم تنخلّ عن مشاركة شقيقاتها من الأقطار العربية ثاراتها، ولم تجبن ولم تتأخّر عن مواساة جراح أبناء العروبة، ولم تتخلّف عن نجدة إخوانها في الدّم واللّسان.

إنّ الشّعر الجزائري الذي بشّر بالقوميّة العربيّة الإسلامية، لم يكن لتغيب عنه حوادث العالم العربي وقضاياه، حتى وهو يعيش أحلك الظّروف وأقسى المحن. فبرغم ما فرضه الاستعمار الفرنسي من قيود على الإتّصال بالعالم العربي الإسلامي، وما ضربه من ستار حديدي على ما يجري فيهما، فإن الشّعر الجزائرري كان يمدّ الرّأي العام بأنباء الوطن العربي، ويفيده بكل ما حدث فيه، استجابة للرّسالة القوميّة التي تفرض عليه البقاء مرتبطا بكل من تجمعه به أواصر الدّم واللّسان.

هذه الرّوح هي التي تكشف الشّعور القومي، الذي كان يحكم كتابات الشعراء. وهي التي تبين دور الشّعر في الهويّة القوميّة؛ إذ تبرز وتوّضح ما يجب عمله للبقاء في ارتباط وثيق وصلة قويّة بالأصول وبالأشقّاء فلا المحن تفرقّ بين

الأشقّاء، ولا الظّروف تفقد حرارة التّجاوب مع الآلام والآمال المشتركة، ولا المضايقات والاستفزازات تنسي الأخ في أخيه.

في السّلوك الذي أبداه الشّعراء الجزائريون في أحلك أيّامهم وأشدّ لياليهم تجهّما درس وعبرة في كيفيّة التّعامل مع الأشقّاء وقضاياهم، وكيفيّة معالجة أمورهم مهما تكن الأوضاع التي يمرّون بها من الرّخاء والشّدّة. والشدّة كما يقال محكّ الأصالة. وكم راجت وتروج اليوم في الوطن العربي عملة زائفة هي التّنكّر للقوميّة والتّخلّي عن بعضنا البعض، والسير في ركاب الغير، والتّقلب في المواقف.

لقد أظهر الشّعراء وعيا كبيرا بالقضايا العربيّة والإسلاميّة كقضيّة فلسطين، التي كانت وما تزال محك الأصالة العربيّة في كل قطر عربي « واسم فلسطين والجزائر تعانقا في أكثر من موقف، وصدرا أكثر من قصيدة، والجزائر لا تزال تخوض مسيرتها المجمولة» (80) وكاستقلال بعض الأقطار العربيّة، كما تفاعل الشّعراء مع الثّورات العربيّة وأحداث الوطن العربي والمعارك الأدبيّة ومناسبات التّكريم والتّأبين لعظماء العالم العربي والإسلامي من كتّاب وشعراء وزعماء ومصلحين...

من الأحداث العربيّة البارزة التي كتب عنها الشّعراء الجزائريّون حادثة دمشق سنة 1925؛ متمثّلة في ضرب القوات الفونسية لدمشق بالقنابل، وقد كان من أوائل هؤلاء الشّعراء إبراهيم أبو اليقظان الذي: لم تكن مشاركته مجرّد مواساة أو تعاطف وجداني، بقدر ما كانت إيمانًا بأنّ النّضال العربي إنما هو نضال واحد أينما كان. ولم يكن شعره نواحا أو تباكيًا على ما وقع بل كان يدعو الى مزيد من الضّحايا ومزيد من المقاومة، لأنّ هذا الأسلوب هو وحده الذي يصلح مع الاستعمار الغربي الذي غزا بلادنا ليفرض السّيطرة والاستغلال» (81)

قال الشّاعر:

ابن صرح المج عن أسّ الضّحايا
وأشدّ عرش العلا رغم البلايا
خض غمار الهول غوصا إنّما
لؤلؤ التّيجان في بحر المنايا
إنّ في الموت لطلاب العلا
لحياة لاحياة أهل الدّنايا
إنّما الدّنيا جهاد من ينم
يومه داسته أقدام الرزايا
ولنيل الحقّ أدورا غدت
خطوات، جازها جلّ البرايا
... ليس حكم النّفي والسّجن ولا
الحكم بالشّنق له إلاّ مطايا
أيّ شعب نال حريّته
وهو لم يطلع لها تلك الثّنايا
إنّ أهل الغرب خطّوا خطّة
لبنى الشّرق بدت منها خفايا
بدت البغضاء من أفواهم
وهي عنوان على ما في الطّوايا(82)

هذه المعاني التي ضمنها الشّاعر هذه القصيدة التي تحثّ على الجهاد والمقاومة: حديث عن حقيقة الحريّة وطبيعة نوايا الغرب، وتوعيّة الأمة العربية بما يجب فعله للوقوف أمام مخططات المستعمر وإفشالها... هذه المعاني الّتي استوحاها الشّاعر من حادثة دمشق، تكشف عن هذه الرّوح القوميّة التي يتمتّع بها الشّاعر

الجزائري، وفي وقت مبكّر. وهي التي حملته على التنبيه إلى نوايا الغرب الخبيثة على العالم العربي والإسلامي، وهو يلمح إلى أنما حدث في سورية سيحدث في أي قطر عربي...

ومن الحوادث أو الأحداث التي انفعل معها الشّعر الجزائري كثيرا الثّورة المصرية سنة 1952 والعدوان الثلاثي على مصر سنة 1956 قال محمد العيد مخاطبا مصر:

فشنيّها عليهم حرب ثأر
وشبّيها لظى ذات اتقاد
وخطيها كتائب غير كتب
وصحفا من دم لا من مداد(83)

وغداة الإعلان عن الوحدة بين مصر وسورية يوم 8 فيفري 1958 قال صالح خباشة:

بردى إلى الليل المرحب أقرب
ياليت دجلة في اللّقا لا تكذب
... كثرت دويلات لنا، فكأنّها الـ
أوراق يخلطها لعدوّ، ويلعب
هلا تضمّك وحدة كبرى تصو
ن ذمارنا؟ فإلى متى نتشعّب
قسم الغزاة بلادنا لقما فسا
غت، لو صمدا وحدة لم يقربوا
أمّا الحدود فزوّروها بيننا
كالشّوك يدمي في خطونا ويعذب
... للنّور يأبناء يعرب فاركضوا

آن الأوان لكم لأن تتغلبوا(84)

أمّا عن القضيّة الفلسطينية، فإنّنا لم نسجّل في الأدب الجزائري الحديث إهتمام بقضيّة إسلاميّة عربيّة مثلما سجلّنا لهذه القضيّة، فقد كان لها حضور كبير في هذا الأدب، منذ بدأ الحديث عنها في الزّوايا والأماكن الخاصّة، ومنذ كانت القضيّة أفكارا وحديثا عاديا يتدوال، ومنذ كانت إرهاصاتها تلوح في الأفق.

كان لما ذاقه الجزائريون من أذى وما جرّعهم اليهود من مرارة في مختلف الميادين، وما أصابهم من كيديهم، كان لكلّ ذلك دوره في اشتداد حقد الجزائريّين على اليهود والصهيونيّة.

لقد عرفوا مرارة الضّيم والقهر والإضطهاد؛ قدروا معنى التضحية لاسترجاع الحريّة والكرامة، فكان تنديد الأدباء الشّديد بقوى الاستعمار بعامّة هو تنديد ومقاومة غير مباشرة للعدوّ الفرنسي المستبّد في الجزائر، وكان الكشف عن مؤامرة اليهود والصهيونيّة في فلسطين هو كشف عن مؤمرات فرنسا ومناوراتها في الجزائر (85)

هذا التّعامل مع هذه القضية بهذه الكيفية وبهدف تحقيق تلك الغايات، وبهذا الوعي العميق، وهذه الشّمولية في النّظرة، هو ما يعطي لهذا العمل الأدبي القيمة القوميّة، لانه يوفّر له الطابع الرسّالي. وهو ما يجب أن يكون عليه الأدب في كل زمان ومكان وفي كل الحالات.

كتب الشّاعر مفدي زكريّاء سنة 1961 قصيدة تحت عنوان « فلسطين على الصليب» تعّد 83 بيتا، بناها على شكل حوار بينه و فلسطين استوحى فيها الفاصلة القرآنية في سورتي الحاقة والقارعة واستلهم معانيها التي تتناول أهوال يوم القيامة والحساب والجزاء والعقاب، وهو ما ينتظر عباد الله (خير أو شرّا).

استعرض الشّاعر في هذه القصيدة القضيّة الفلسطينية وتصرّفات العرب معها، وخذلانهم لها، بسبب مواقفهم السلبية نحوها:

أناديك في الصّرصر العاتية
وبين قواصفها الذّارية
وأدعوك بين أزير الوغى
وبين جماجمها الجاثية
...فلسطين يا مهبط الأنبيا
ويا قبلة العرب الثّانية
...فلسطين والعرب في سكرة
قد انحدروا بك للهاوية
رماك الزّمان بكلّ لئيم
زنيم من الفئة الباغية
وصبّ بك الغرب أقذاره
ورجس نفاياته الباقية
... بكيت فلسطين في حائط
به - قبل- قد كانت الباكية

بعد أن تندب فلسطين حظّها مع أبنائها، تودّ لو أنّها كانت تملك أمرها لا نتقمت لنفسها من أبنائها، ولقامت بغسل العار.

فلو كان لي أمر تدبيرها
لما احترت في أمرها ثانية
...فأقتصّ من قوم موسى غدا
وآخذهم أخذة رابية
...ومن يحتفر وثبات الشّعوب

تُذيبُهُ أعاصيرها السّاقية

ويقرّر الشّاعر في النّهاية أن انتكاسة العرب في فلسطين يجب أن تكون عبرة ودرسا، يستفاد منها للنّهوض ولتّشمير عن ساعد الجدّ. هذا هو بيت القصيد في هذا النصّ الشّعري. هذه النهاية تجسّد البعد القومي في هذه القصيدة. ومن ثم تعطي لهذا الموضوع (قضايا عربية إسلامية في الشّعر الجزائري) الطابع القومي في التّناول والمعالجة:

وفي نكبة العرب موعظة
مدى الدّهر للمنهج الواعية
فمدّوا يدا نحو أوطاننا
وتُنقذ حمانا من الهاوية
فإن تنصروا اللّه ينصركم
وينجز أمانيكم الغالية
ولن يخلف اللّه ميعاده
ولا ريب ساعتنا آتية (86)

مُعَوّقات القومية

مع كل ما ذكرناه وسّجلناه عن دور الشّعر الجزائري الحديث عن القوميّة، فإنّ هناك معوّقات كثيرة حالت دون تثبيت هذه الرّوح في بعض النّفوس، وقد بدا ها - بخاصّة- في الشّعر الذي قيل بعد استقلال الجزائر.

وقد أحسّ الشّعراء أنفسهم بهذا التّغيير الذي سيحدث في المعتقد والسّلوك. ولهذا حرصوا على التّركيز على المقوّمات، والتّذكير بالتّضحيات التي بذلت في سبيل حماية القوميّة.

وأكثروا من التحذير من مناالخروج عن الجادة، ومن الانحراف والنّزوع نحو الغرب.

وقد حدث - فعلا- عقوق وتخلّ عن بعض المقّومات، وانحراف عن الأهداف القوميّة، وقد كتب الشّعراء يبدون تذّمرهم من هذه التّغيرات مثلما سجّل ذلك محمّد العيد ومفدي زكرياء وأحمد سحنون ... ينظر مثلا قصيدة « وحدتي» لمفدي زكرياء (87) وقصيدة « هذه قمّة الفتوة» لمحمد العيد (88) نلمس هذا التّردي في القوميّة، والتّخلي عن الأصالة عند شعراء الاتّجاه الجديد في الشّعر الجزائري. وعند من سموا بشعراء السبعينات (89) بخاصّة الذين طغى عليهم التّوجيه الايديولوجي المستورد، فضلّوا الطّريق نحو القوميّة الاصلية.

إذا بحثنا عن المؤثرات (90) التي أثّرت في شعر هؤلاء وجدناها تتمثّل في ضعف التّعليم العربي، الذي هو من الرّواسب الاستعمارية ومخّلفاته. وفي انحطاط مستوى اللّغة في أعمالهم الفكرية والأدبية، وهو ما أدى بهم إلى ارتكاب أخطاء لغّوية نحويّة وصرفيّة ورسميّة كثيرة وتوظيف اللّغة العاميّة والدّخيلة في كتاباتهم.

من المؤثرات أيضا قلّة معرفتهم بالتّاريخ العربي الإسلامي، وانقطاع حلقاته عنهم. وهذا ما أضعف فيهم العاطفة القوميّة.

وكان من مظاهر هذا الضّعف الاعتماد على ثقافة الغير في الاستلهام والاستيحاء، وفي تكوين الشّاعرية وبناء الشّخصية. من ذلك استلهام الرّموز غير المنسجمة مع أصالتها، من دون مراعاة الخصوصية الثقافية والاستفادة من المتغّيرات الثقافية وتكييفها مع ما ينسجم وثقافتنا فنيّا وابداعًا من دون تبني ما تحمله من أفكار القوميّة الأصيلة.

الخاتمة

في ختام هذا البحث عن دور الشّعر الجزائري في معالجة الهويّة القوميّة، يمكن لنا أن نذكر بعض النتائج التي تبيّن إسهام هذا الشّعر في بلورة مفهوم القوميّة

وتعداد مظاهرها، للمقارنة بين هذه المعالجة وما يقوم به الشّعر حاليا. ومن ثم معرفة هذا الدور في الشّعر المعاصر، والنتائج المتحصّل عليها:

1- إن المشاعر التي أبداها الشّعراء تفصح عن حالة الكآبة والبؤس والضّياع والتّيه، وعن الشّعور بالفراغ الروحي، والاحساس بانعدام الانتماء (في بعض الأحيان) أو محاولة الغير إقناع الجزائريين بذلك.

كما تكشف عن الإحباط النّفسي، ومحاولة المستعمر الفرنسي دفع الشّعب بالركون إلى الأمر الواقع، والاستسلام لمخططاته.

إلاّ أنّ كلّ ذلك لم ينل من عزيمة الشّعراء، ولم يفت في إرادتهم وقّوة شخصيتهم، بل عبّروا بشعر حماسي فيّاض قويّ عن قهر هذه المؤامرات، ودحض هذه الدّعوات، وردّ هذه الممارسات. واثبتوا للعدوّ أنّهم ما يزالون أقوياء أعزّاء صناديد، متمسّكين بوحدتهم، متماسكين بقوتّهم هذه النتيجة هي أحد مظاهر التّعبير الشّعري عن القوميّة.

2- الشّعر الجزائري زمن الاحتلال بخاصة كان شعرا وطنّيا في معظم ما عالجه، وما تناوله من موضوعات فوصف الطبيعة مثلا كان سبيلا أو وسيلة لتصوير الجانب القومي والرّوح القوميّة.

3- لم يكن التّغني بالجزائر إلاّ أسلوبا من أساليب التعّبير عن ألام البلاد، وقد حاول الشّعراء تصوير حالة شعبهم من خلال نفوسهم وهو ما يبرز ها التّعاطف الوجداني الذي كان يسري بين الشّاعر وقومه ووطنه، ويكشف عن الخيط المشترك الذي كان ينتظم نفوس الشّعراء كما ينتظم وطنهم وشعبهم باتّحاد آلامهم وآلامها، آمالهم وآمالها...

4- كان هدف الشّعراء الجزائريين وطنهم الجزائر: شعبا وأرضا وقيما وانتماء

ضاربا في أعماق التاريخ.

5- معالجة القضايا العربية والإسلامية في الشعر الجزائري هو تعبير عن القوميّة.

6- التّعلق الكبير بالعروبة والعرب والعربية في الشعر الجزائري بشكل لافت للنّظر، يكشف عن الظروف العسيرة التي كانت تعيشها الجزائر تحت نير الاستعمار، وتبين عن البحث الطويل والعناء المستمر اللّذين ابداهما الجزائريون في سبيل إقرار الهويّة القوميّة، وللبحث عن هذه الهوية طريق طويل محفوف باليأس والتّشاؤم القاتل أحيانا.

ويفصح هذا التّعلّق عن الاغتراب الفكري والغربة الرّوحية والنّفسيّة، مع ذلك بقي الشّعراء محافظين على الرّوح العربيّة الاسلاميّة، وظلّت مشعّة حيّة في ضمائرهم، وبها واصلوا الكفاح والنّضال فحموا مقوّمات أمتّهم من التّلاشي والذّوبان.

فالشّعر الجزائري بهذه الرّوح، بهذا الصّبر الكبير والصّمود القويّ، يقدّم درسا للأجيال في المحافظة على الأصالة، وعلى العروبة والقوميّة مهما تكن الظّروف والأحوال من الإغراء والإغواء والتّغرير والتّهديد...

7- استوحي الشّعراء اتّجاههم ومواقفهم من الشّخصية الوطنيّة التي تقوم على العناصر الثلاثة الآتية:

الإسلام العروبة، التّاريخ، التي كانت هدف المستعمر في الهجوم والمصادرة...

الدّين مصدر وحدة الشّعب وعزّته. العروبة مستوحى القيّم، التّاريخ ملهم المواقف الوطنيّة والقوميّ.

8- كانت قصائد الشّعراء نسيجا محكما سداه الإسلام ولحمته العروبة. لم

يفرّق الشّعراء بينهما أبدا في كتاباتهم بسبب تجذّر الإسلام في النّفوس وتشابك تراث العرب والمسلمين.

9- ممّا يدلّ على قيمة الشّعر ودوره وضرورته للحياة السّابقة واللاّحقة، وضمان الاستمراريّة، وأنّه يستعصي على غير الواعي المجرّب المتمرّس الخبير... أنّك لا تجد في الشّعر الجزائري- إلاّ القليل- من يساوم فيه ويتاجر في المقوّمات الأساسيّة للهويّة القوميّة، من لغة ودين ومصير وآمال وآلام...

فرغم الأصوات التي تتعالى في الشّوارع، وفي بعض المحافل الخاصّة والعامّة، من عامّة النّاس وسراتهم أحيانا، في الزّوايا والتّكايا...لإحياء بعض اللّهجات ومساواتها باللّغة العربيّة، وإعطائها الدّور أو القيمة التي للغة العربيّة، وجعلها طوعا أو كرها. قهرا وقسرا لغة علم ومعرفة، رغم كلّ ذلك فإنّ الشّعر لم ينزل إلى هذا المستوى، ولم يدخل في هذه اللّعبة، فينساق مع هذا التّيار، بل عدّ اللّغة العربيّة هي اللّغة الأساسيّة، التي لا مزاحم لها، ولا مزايدة عليها؛ إذ أنّها إحدى مقوّمات الهويّة القوميّة العربيّة الإسلاميّة. إنّ هذا يدلّ على دور الشّعر في هذا المجال.

هذا هو الشّعر القومي، الذي يحمل رسالة: فيها التبشّير بمؤهلات الأمّة ومكوناتها، والإنذار لمن يتصدّى لهذه القوميّة، والمقاومة لمن يمسّ المقوّمات.

فيها بثّ الوعي ونفخ الرّوح فيمن يتأخّر عن الدفاع عن نفسه ومكوّنات شخصيّته. فيها زرع الأمل في النّفوس التي أصابها اليأس من المحافظة على توازنها الروحي أمام الضّربات المتتاليّة، الرّاميّة إلى تحطيمها نفسيا، وفيها إبعادها عن التّشاؤم من البحث عن الذّات، حين يعمد إلى تغييبها.

فيها رسم الطّريق السّليم للأجيال المتلاحقة... هلاّ وعي الشّعراء المعاصرون هذه الرّسالة وفقهوا هذا الدّور، فينهضوا ليقفوا في وجه كل الدّعوات الهدّامة

والتّيارات القائمة هنا و هناك، في كلّ ركنٍ وزاوية، منتصبة لضرب الهويّة، ومحاربة القوميّة، وأن لا يستسلموا للظّروف والمخططات المغرضة بأية حجّة وبأي لبوس وبأي صبغة تظهر عليها.

بإمكان الشّعر أو الشّعراء أن يقوموا بهذا الدّور. لكن الرداءة التي أصبح يتّصف به الشّعر المعاصر، وما تطالعنا به الصّحف والدّوريات، لم تبق للشّعر مكانته التي كان يحتلّها في القلوب والنّفوس، ولم تبق له دوره الذي كان يقوم به في الحياة العامة، إنّ هذا التّرديّ في الكتابة الشّعرية جعلت الشّعر أبخس بضاعة في السّوق أو في الحياة.

وقد تسبّب في هذه الوضعية - أيضا- انتشار التّكنولوجيا وسيطرة العلوم على الحياة العامةّ، وانصرف النّاس بتفكيرهم واهتماماتهم إلى الحياة المادية، ونفورهم من الحياة الرّوحية والمعنوية والأدبيّة. وقد أعانت على ذلك مناهجنا الدراسية وبرامجنا الإعلامية، وسيرتنا اليّومية وتوجّهاتنا المنحرفة أحيانا..

كل ذلك قلّص من دور الأدب بعامة والشّعر بخاصة في توجيه الحياة، أو على الأقل في صنع ما تتطلبه الحياة.

إذن يجب ردّ الإعتبار للشّعر في أوساط النّاس أولا بمحاربة الرداءة، وتقديم حقيقة الشّعر وضوابطه... وطرد المتطفّلين عليه وعدم قبول الحجّ إلى حرمه إلاّ صاحب الكفاية الفنيّة والفكريّة.

ثم بتذكير الأخلاف بدور الأسلاف - بفضل شعرهم- في إدارة شؤون الحياة والقيادة والرّيادة في ذلك وبإقناع النّاس بأن الحياة لا تقوم على التكنولوجيا فحسب فسب، بل على الروح والأدب أيضا.

الهوامش:

1) د. محمد محمد حسين، الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر، الجزء الثاني ط 2. مؤسسة الرّسالة، بيروت، سنة 1407 هـ/ 1986م. ص: 173، 138.

2) د. عبد الله ركيبي، قضايا عربيّة في الشّعر الجزائري المعاصر. ط 3 الدار العربيّة للكتاب ليبيا، تونس، سنة 1397هـ/ 1977، ص: 7.

3) الدكتور صالح الخرفي، في رحاب المغرب العربي، ط1. دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان. سنة 1985م. ص: 220 وللمؤلف نفسه، الشّعر الجزائري (ش، و، ن، ت) الجزائر.(د.ت)ص: 259 ومجلة الفكر عدد جانفي 1958.

4) الدكتور صالح الخرفي، صفحات من الجزائر، (ش، و، ن، ت) الجزائر، سنة 1973 ص:

5) ينظر الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر، ج1

6) الدكتور محمد ناصر، الشّعر الجزائري الحديث، اتجّاهاته، وخصائصه الفنيّة. (1925.. 1975) ط1 سنة 1985 ص: 130

7) المرجع نفسه.

8) مفدي زكرياء، اللّهب المقدّس، ط2. منشورات وزارة التّعليم الأصلي والشّؤون الدّينية الجزائر سنة 1973، ص: 290.

9) أبو اليقظان، الديوان ج 1. ط2 المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعية رغاية، الجزائر. نشر جمعية التّراث، العطف، غرداية. سنة 1989. ص: 53.

10) ينظر كتاب في رحاب المغربي العربي، ص: 221.

11) الدكتور محمد ناصر، رمضان حمود: حياته وآثاره. ط: 2 (م.و.ك) الجزائر سنة 1405 هـ 1985م.ص: 194، 195.

12) المرجع السابق. 194

13) اللّهب المقدّس، ص: 290، 293.

14) محمد العيد آل خليفة، الديوان، (ش، و، ن، ت) الجزائر سنة 1979ص 261.

16- د. محمد ناصر، الشّعر الجزائري الحديث. ص:73.

17- ينظر تحليل لهذا المفهوم المرجع السّابق، ص:66

18- الدكتور عمر الدقاق، نقد الشّعر القومي، منشورات اتّحاد الكتاب العرب. دمشق سنة 1978 ص40.

19- المرجع السابق ص91.

20- الدكتور عمر الدّقاق، الاتّجاه القومي في الشّعر العربي الحديث، دار الشّروق العربي بيروت ب ت ص 195.

21- نقد الشّعر القومي ص 209

22- بالاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر، ج1 ص8.
2- نقد الشّعر القومي، ص:210
24- عن تطوّر مفهوم القوميّة في المجتمع العربي، ينظر، الاتّجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج 1ص: 7- 16. والاتجاه القومي في الشعر القوميّة ينظر الاتّجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج2 ص:99 وما بعدها.
25- عن الظروف التي أدّت إلى ظهور روح القوميّة العربيّة ينظر الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر ج2 ص: 99 وما بعدها.
26- نقد الشّعر القومي، ص:211
27- الدكتور صالح خرفي، الجزائر والأصالة الثوريّة ص: 19
28- ديوان محمد العيد، ص 144
29- في رحاب المغرب العربي، ص 221-222
30- اللّهب المقدّس، ص 58
31- أبو القاسم سعد الله، النّصر للجزائر 3 المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر - سنة 1986 ص69،70
32- الشّعر الجزائري ص:258
33- سورة الشّعراء الآية 213
34- لمزيد من التفاصيل ينظر الدكتور صالح خرفي، الشّعر الجزائري ص 105 وما بعدها.
35- د محمد مصايف، د محمد ناصر، د عبد المالك مرتاض، دراسة في الشّعر الجزائري الحديث من 1925 الى 1954 (مخ) ص: 27
36- اللّهب المقدّس، ص 40، 41
37- ديوان محمد العيد ص: 195
38- ينظر د صالح خرفي الشّعر الجزائري، ص: 116
39- المرجع السابق ص: 127، 128 (البيان للشّاعر الجزائري الربيّع بوشامة(1916-1959) من قصيدة نشرت في جريدة البصائر (الجزائر عدد 24: (23 فيفزي 1948).
40- نقد الشّعر القومي، ص 20، 21.
41- د صالح خرفي، الشّعر الجزائري، ص: 124 د محمد ناصر مفدي زكرياء شاعر النّضال والثورة ط2 المؤسسة الوطنية للفنون المطبعة، رغاية الجزائر، نشر جمعة التراث العطف غرداية: سنة 1989 ص 216.
43- ديوان محمد العيد آل خليفة، ص: 289
44- د صالح خرفي، الشّعر الجزائري، ص: 256 من مقال لمصطفى الأشرف « البطولة في الثّورة الجزائرية» مجلة الفكر (تونس)، عدد 2 نوفمبر 1959
45- دراسة في الشّعر الجزائري الحديث، ص 97، 78.
46- ينظر ديوان أحمد سحنون ص: 41

47- المصدر السابق ص 35
48- ال المصدر السّابق، ص 33
49- دراسة في الشّعر الجزائري الحديث، ص 113
50- د صالح خرفي، الشّعر الجزائري ص 268
51- دراسة في الشّعر الجزائري الحديث، ص: 103
52- اللّهب المقدّس ص 33- 38
53- مفدي زكرياء، إلياذة الجزئر، المؤسسة الوطنية للكتاب» سنة 1987 ص: 36
54- صالح خرفي اطلس المعجزات ط2 (ش، و، ن، ت) الجزائر سنة 1982 ص: 177، 178
مطلع القصيدة هو:
بايعت من بين الشهور نفمبرا
ورفعت لصوت شعبي منبرا
55- دراسة في الشّعر الجزائري الحديث، ص 10
56- الحديث ينصرف إلى الشّعر الذي قيل قبل الاستقلال بخاصّة
57- وهو الموقف نفسه الذي اتّخذه ويتّخذه كلّ من يسير في ركاب المستعمر من أبناء الجزائروغيرهم حاضرا وماضيّا
58- الشّعر الجزائري الحديث، اتّجاهاته وخصائصه الفنيّة، ص: 249، ينظر نماذج من تأثّر الشّعراء بالقرآن الكريم كتابنا « أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث» ج1ج2 المطبعة العربية غرداية الجزائر سنة 1992
59- ينظر كتاب « نقد الشّعر القومي» ص: 205
60- في رحاب المغرب العربي ص: 204
61- أطلس المعجزات، ص: 123
63- عن التفصيل في هذا الموضوع، ينظر مقالنا « العروبة في شعر مفدي زكريا » مجلّة الثقافة (الجزائر) ع: 107-108 مارس سنة 1995 ص: 38-75 وقد نقلنا منه بعض الفقرات في هذا البحث
64- اللّهب المقدّس، ص: 320- 321
≠65 إلياذة الجزائر ص: 43
66- المصدر السّابق ص: 104
67- مفدي زكرياء شاعر النّضال والثّورة ص:212
68- اللّهب المقدّس، 283
69- صالح خرفي، أنت ليلاي، (ش، و، ن،ت) الجزائر سنة 1974، ص 170
70- عيسى لحيلح، وشم على زند قرشي، ط1 مطبعة البعث قسنطينة الجزائر سنة 1985 ص: 23 القصيدة تحت عنوان « كهربوا الضّاد » القيت في الملتقى الدّولي الثّاني للتعّريب بجامعة قسنطينة سنة

1984

71- الدكتور نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرّفض والتحرّير ط1، دار العلم للملاين ، بيروت سنة 1981 ص 337.

72- ديوان محمد العيد، ص 465 من قصيدة في رثاء حافظ إبراهيم وردت فيها كلمة الشّرق 5 مرّات والقصيدة تعد 34 بيتا.

73- محمّد البشير الابراهيمي، عيون البصائر (ش، و، ن، ت) الجزائر سنة 1971 ص 551 من مقال تحت عنوان. « من نفحات الشّرق» نشر في جريدة البصائر ع: 164 سنة 1951

74- ديوان محمد العيد ص 259، 260

75- دراسة في الشّعر الجزائري الحديث، ص 45

76- اللّهب المقدّس ص 57

77- المصدر السّابق، ص 120

78- المصدر السّابق، ص 278 وما بعدها

79- المصدر السّابق ص 121-122-123

80- الدكتور صالح خرفي، الشّعر الجزائري ص 261

81- قضايا عربيّة في الشّعر الجزائري المعاصر، ص 102

82- ديوان أبي اليقظان 1 ص 125 القصيدة مثبتة في الدّيوان تحت عنوان « في الجهاد الوطني»

83- ديوان محمد العيد ص: 344

84- صالح خباشة الروابي الحمر (ش، و، ن، ت) الجزائر سنة 1971 ص 83، 85، 86

85- ينظر كتابنا « السّخرية في الأدب الحديث» (مخ) ص 97 وما بعها

86- اللّهب المقدس، ص 336- 349 ينظر تعلقنا على هذه القصيدة كتابنا « أثر القرآن في الشّعر الجزائري الحديث» ج2 ص 353-359

87- ينظر صالح خرفي الشّعر الجزائري (الملحق الشعري) ص 119- 120

88- ديوان محم العيد، ص 265-273

89- وإن كنت لا أوافق على التقّسيم الزمني للشّعراء الذي يتّخذ العقد مرجعا للتّصنيف

90- وهي مظاهر ف الوقت نفسه.

الفهرس

مفهوم الشعر ودوره عند الشعراء الجزائريين 7

مفهوم القومية وأسباب بعثها 11

مظاهر القومية في الشعر الجزائري 14

1- التغني بالوطن..... 16

2- التوعية التاريخية..... 22

3- وصف الطبيعة..... 27

4- تعامل الشعراء مع اللغة تعاملا قوميا..... 38

5- العروبة في الشعر الجزائري..... 40

6- قضايا إسلامية وعربية في الشعر الجزائري..... 47

معوقات القومية 57

الخاتمة 58

صدر في هذه السلسلة:

- شعرية السبعينات في الجزائر لعلي ملاحي
- المسرح الجزائري ثلاثون سنة لمخلوف بوكزوح
- آيت منقلات حكيم الزمان لمحند أرزقي فراد
- الكاهنة أخواتها لمحند أرزقي فراد
- الإسلام ونظم إنتاج المعرفة لمنصف بوزفور
- اللؤلؤ المنير في شرح مثلثات ابن المستنير لمحمد شيبي
- المسرح الجزائري 1926 -1989 لأحمد بيوض
- نظرية الحضارة عند مالك بن نبي لبلحاج ناصر
- اللاجؤون الفلسطينيون بين الاستيطان وحق العودة لجمال سلامة
- النظام العالمي .. المأزق والبديل عبد الرزاق طوطاوي
- تأملات في النهضة الإسلامية لأحمد بناسي

تعرّضت الهويّة القوميّة - في تاريخ العرب الحديث- لتفسيرات ومساومات وتقديرات متباينة متناقضة أحيانا... ترجع أسباب ذلك إلي الرّصيد الثّقافي، أو النشأة الثّقافية التي ميّزت الأجيال المتأخّرة بخاصة، التي كانت غير مؤسّسة على ثوابت راسخة متميّزة، متجذّرة في أعماق الأصالة، ومرجع هذه المساومات - أيضا- إلى الظّروف السّياسية والإجتماعية والثّقافية التي مرّ بها كلّ شعب أو قطر من الأقطار العربيّة. وقد يكون سبب ذلك مصالح خاصة طبعت مسيرة فئة خاصة، تريد السيّر في ركاب نظام معيّن (غربي أو شرقي)، وقد يكون السّبب تعصّبا أعمى، أو تحيّزا سافرا ضدّ مقوّمات معيّنة... أو الرّغبة في التشبع بثقافة ما على حساب الثّقافة الأصيلة. وقد يكون السّبب السّذاجة في تقبّل مشروعات الغير، وعدم التفطّن إلى دسائسه... حدث هذا بخاصة في مرحلة ما بين الحربين العالميتيين، هذه الفترة بالنّسبة للعرب -سياسيا وإجتماعيا وقوميّا- كانت مرحلة حاسمة مثقلة بالأحداث الخطيرة، حافلة بالثّروات، مليئة بالمؤامرات على المقوّمات والثّوابت الأساسية للأمة العربيّة الإسلامية.

الغلاف من تصميم : الرسام
اخلوفي جزيد